قلوب العصافير

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الناشر : دار زهور المعرفة والبركة

١٢٧ ش أثر النبي خلف مسجد الرحمن مصر القديمة

٠١٢٢٢٦٤٠٦٤٨٩ – ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤

البريد الالكتروني yuness2005@hotmail.com

قلوب العصافير

روايـة

عبـد البـاسـط البـطـل



البطل ، عبد الباسط .

قلوب العصافير : رواية / عبد الباسط البطل

الجيزة : دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١٧.

ص ١٩٨- ٢١ سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢٥٤٩

١- القصص العربية .

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٩٩١٨

الترقيم الدولي 9- 54 - 5172 -977 - 978

الفصل الأول

الحاج على

قبل أن تتهادى الشمس إلى مخدعها الأخير، تقف "فاطمة" ابنة السابعة والعشرين، أمام نافذة الدور الثاني، المطلة على الأراضي الزراعية الواسعة.

نسمات الصيف تحمل رائحة الزهور، ورائحة المانجو والجوافة والموز، أسفل النافذة التي تقف خلفها.

ملأت صدرها بهذا المزيج من الروائح المنعشة، تتعلق نظراتها بالقادم على الطريق الترابي، الذي يشق الزروع أمامها، في قرية شبرا ملكان.

أمها الحاجة "أمينة" تفترش حصيرة بحجم الصالة الواسعة.

تلاعب حفيدها "محمد" ابن "فاطمة" مرة، وتتحدث مع ابنتها في أمور عائلية أو منزلية مرة أخرى.

أرسلت تنهيدة حارة، أعلى من لغط العصافير التي تتزاحم على أعشاشها وقت الغروب، وقالت: نفسي أفرح بأخيك "عبدالرحمن"

- إن شاء الله قريب يا أمي، كل شيء بأوان .

- قلبي يأكلني عليه، تأخر في الزواج عن زملائه .

لم ترفع "فاطمة" عينيها عن مراقبة الطريق، تنتظر ظهور القادم عليه من بعيد، هذا ميعاد عودته من الحقل.

فجأة.. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها، خطفت ولدها من أمام جدته، حملته على ذراعها، واتجهت ناحية الباب وهي تقول: جدك الحاج جاء يا "محمد".

نزلت إلى الدور الأرضي، فتحت الباب على مصراعيه، خرجت خطوات إلى الشارع، يقترب والدها شيئا فشيئا، حتى أصبح بينها وبينه خطوات قليلة.

قالت مخاطبة ولدها مرة أخرى: جدك يا "محمد".

يعلو صوت جده مناديا إياه: "محمد".

"محمد" ينظر حوله، يبحث عن صاحب الصوت، تروح عيناه يمينا ويسارا، ثم تستقر نظراته عند جده، الذي ينزل من فوق حماره.

يحملق "محمد" في وجه جده برهة، كأنه يريد أن يتأكد بأن هذا الوجه معروف لديه، ثم يندفع نحوه .

يترك الحاج "علي"حبل الجاموسة، ويأخذه بين أحضانه، يملأ وجهه بقبلات الحنين، كأنه غائب عنه منذ زمن بعيد.

– وحشتني كثيراً يا حبيبي .

هكذا دائما ما يردد، وهو يصعد به إلى الدور الثاني، حيث تجلس زوجته الحاجة "أمينة""، تاركا ابنته "فاطمة" تتولى ربط الحمار والجاموسة في الزريبة، ووضع العلف لهما، وحلب الجاموسة.

- السلام عليكم يا أم "عبد الرحمن" .

- وعليكم السلام يا حاج.. بسرعة وحشك الولد .

- طبعا يا حاجة.. لأن أعز الولد ولد الولد .

- ربنا يبارك لك فيه يا حاج، ويخليه لأمه.

دائما ما يتساءل الحاج "على".. لماذا تأخر "محمد" في النطق والسير مثل الأطفال، رغم أنه تخطى العام الثاني بشهور قليلة؟.

ولماذا يضطرب كلما سمع صوتا مفاجئا.؟

لم يجد إجابة، وهذا ما جعله في حيرة دائمة.

كان يظن أن الدار سوف تمتلئ بالضجيج والحركة بمجيء "محمد".

وان أشياءها سوف تلقي هنا وهناك، بعبث الطفل وفوضويته.

وأنه سوف يتعلق بجلبابه كلما خرج من الدار، ويفتش في جيوبه باحثاً عن حلوى عند عودته.

لكن "محمد" لم يفعل ما يفعله الأطفال، فهو دائم الصمت والانطواء، ينظر حوله نظرات مشتته، ولا يبتسم إلا نادراً.

– اذهب إلى جدتك يا "محمد".. أريد أن ألحق صلاة المغرب

هكذا قال الرجل، وهو يضعه على الأرض أمام جدته، رغم علمه بأن "محمد" لا يعرف من كلماته شيئاً.

على درجات السلم يلتقي بابنته "فاطمة"، بين يديها "طاجن" مملوء باللبن، يسألها كالعادة: وضعت الفول والردة في التبن للجاموسة والحمار؟

– نعم

– هل شربا..؟

– نعم .

لم يمل من هذه الأسئلة كل يوم، كما لم تمل "فاطمة" من الإجابة.

ثم يختم حديثه معها قائلا: ربنا يصلح حالك ويحفظ لك ابنك.

تصعد هي حيث والدتها وابنها، لتجهز العشاء، ويواصل الحاج ذهابه ليلحق المغرب جماعة.

***

في صالة الدور الثاني، يجلس الحاج، وأسرته، حول "طبلية"، يتناولون العشاء.

"محمد" في حجر جده، يضمه إلى صدره بين الحين والآخر، يداعبه بلقيمات صغيرة يضعها في فمه.

أحيانا يدقق النظر في فم "محمد"، يتمنى لو أن يسحب منه الكلمات.

ويتفحص ساقيه، عسي أن يجد العلة التي تعوق سيره مثل الأطفال.

زوجته تعرف ما يدور بعقله، فتقول: غداً سوف يكون على ما يرام .

- نفسي يتكلم ويمشي يا حاجة .

يأتي صوت "فاطمة" من المطبخ، بعد ضحكة خفيفة:

- مازال "محمد"صغيراً يا أبي.

- كيف وقد تخطى العامين.

ترد زوجته الحاجة في نبرات حزينة: أتمنى أن لا أموت قبل أن أرى أولاد "عبد الرحمن" تملأ الدار.

سكت الرجل، جرت مرارة في نفسه، عجز عن الرد، ولم يسكت قلبه ، امتلأ شفقة على ولده، ثم انطلق يتمتم بالدعاء له.

– كل يوم سفر وغربة في البلاد، ولا يعود إلا مع منتصف الليل.

هكذا قالت الحاجة "أمينة".

فرد عليها زوجها بتنهيدة طويلة، ثم قال: أكل العيش يا حاجة...مرتب الوظيفة لا يكفي مصاريف الفرد الواحد.

- الحمد لله ربنا يوسع رزقه.

- يارب .

أدارت "فاطمة" الملعقة في كوب الشاي، أحدث صوتا مفاجئا، انتفض له "محمد"، هز الرجل رأسه في حسرة، وقال: قلبك خفيف قوى يا "محمد".

- غداً يكبر ويكون رجل مثل جده وخاله.

هكذا قالت "فاطمة" وهى تضع الشاى أمامهما على الأرض.

***

"عبد الرحمن" يعمل موظفا في الشئون الاجتماعية بمدينة المحلة الكبرى، وبعد الظهر يعمل تاجراً.

يستأجر إحدى العربات، يضع عليها منتجات المحلة الكبرى، مثل (الفوط والبشاكير وأطقم الأسرة والمفارش)، يدور بها على المحلات التجارية في المحافظات المجاورة، ولا يعود إلا في وقت متأخر كل ليلة.

عمله كتاجر يدر عليه ربحاً لا بأس به، إلا أنه لم يتزوج بعد، رغم أنه تخطى الثلاثين من عمره.



الحقيقة

دائما ما كان يتساءل الحاج علي، لماذا طلق محجوب ابنته "فاطمة"..؟

لم يبد محجوب أي أسباب للطلاق، يسكت عندما يواجهه أحد بهذا السؤال، مما يقلق الحاج على، ويجعله في تفكير دائم عن السبب.

غير أن "فاطمة" تجزم أنه لم يحدث منها شيء أغضب محجوب.

كل ما تعرفه، أن محجوب أخذ ولدها "محمد" وذهب به إلى الطبيب، وأصر على عدم مرافقتها له، رغم أن ولدها لم يكمل العام ونصف العام وقتها، ثم عاد والغضب يملأ وجهه، وأمرها أن تذهب إلى منزل والدها، ثم فوجئت كما فوجيء الجميع بورقة طلاقها.

وذات يوم، وحينما صبغت شمس الغروب الكون بلونها الذهبي، وأعلنت استئذانها للرحيل، فك الحاج "علي" رباط الجاموسة، واعتدل من حمولة الحمار. استعداداً للعودة إلي المنزل.

وبينما هو كذلك، فإذا بصوت أجش: السلام عليكم يا حاج "علي"

نظر للقادم، فإذا به "جابر"، أحد متطفلي القرية، الذين يأكلون على كل الموائد، ومستودع أسرار أشخاص كثير، يخرجها وقت احتياجه للطعام، أو إلى سيجارة.

- وعليكم السلام.. أهلا يا "جابر".. كيف حالك.؟
- الحمد لله..مازالت الشمس في السماء يا حاج .
- لا الشمس راحت يا جابر .
- اقعد ندخن سيجارة .

استشف الحاج "علي" أن وراءه شيئا يريد أن يقوله، فترك الحبل نصف مربوط في الوتد، وجلس معه يحكي له عن المحاصيل ومشاكل الري، ويدخنان السجائر.

ثم تحول الحوار فجأة، عندما سأله جابر: كيف حال الولد ابن "فاطمة" بنتك .

تعجب الحاج "علي"، أول مرة يسأله جابر عن "محمد"، ولكنه قال: بخير والحمد لله .

- يعنى يمشي ويتكلم عادي

توقفت أنفاس الحاج" علي" لحظة، انقطع الدخان الذي كان يخرج من فمه، لقد أدرك أن "جابر" وراءه شيء يريد أن يقوله.

ثم أخرج الدخان من أنفه بهدوء، وأخذ شهيقا طويلا، وقال:

- الحمد لله بخير .
- فلماذا يقول "محجوب" أن الولد غير طبيعي.
- أغمض الحاج "علي" عينيه، وذهب في تفكير عميق.

الآن عرف لماذا طلق محجوب ابنته . ؟!

مضى جابر إلى حال سبيله، تاركا إياه جالسا مكانه، لا يعرف.. هل هو سعيد لأنه عرف سبب طلاق ابنته..؟ أم حزين؟

صبغت شمس الغروب الطريق بلونها الذهبي، وأضفت بريقاً علي بشرته التي تميل للحمرة، ولمعت دمعة حزن في عينه، سرعان ما مسحها بأطراف أصابعه.

يشعر باختناق شديد، كما تختنق الشمس في غروبها، تاركاً حماره يسير ببطء نحو الدار.

انتبه أخيرا على صوت "فاطمة" وهي تقول: اسأل جدك يا "محمد".. لماذا تأخر اليوم.؟

أدرك أنــه كـان فــي شـرود طويـل، لـم يعـرف كيـف سـار بــه الحمار..؟

أسرعت يده إلى وجهه، تمسح دموعه، حتى لا تراها ابنته.

لكن يده توقفت، حينما سمع "فاطمة" تقول: جدي.. جدي.

فردد"محمد" خلفها بصوت متقطع: جدي جدي.

كانت مفاجأة، أثلجت صدره، مسحت كل أحزانه.

لم يعرف كيف نزل من فوق الحمار.؟

ضمه إلى صدره، ونزلت من عينيه دموع حارة، يطلب من الطفل : قل يا "محمد".. جدي .. جدي..

وكأن الطفل عرف أن هذا اللفظ فيه ذهاب أحزان جده، فردده مرات ومرات دون ملل.

دفن الرجل وجهه في صدر "محمد"، وتمتم بالحمد والشكر لله، لأنه لم يخذله في حفيده، وخيب ظن "محجوب".



رحلات بين الأطباء

بلغ "محمد"عامه الثالث، وجده لا يهدأ عن مراقبته، يعد عليه حركاته وكلماته.

ظهر تأخر "محمد" في النطق والسير أيضاً..

ومازالت الدهشة تنتابه حين يسمع أي صوت مفاجئ، كثير الصمت، كثير الانطواء، ينظر للجميع دون أن يعلق على شيء، لا يبتسم إلا قليلاً .

أدرك جده أن الطفل يعاني من شيء ما...

وبعد زيارات كثيرة للأطباء، كان القرار بأن "محمد" طفل من ذوي متلازمة داون، أو- منغولي- يعاني من نقص بسيط جداً في النمو العقلي، وتأخر في النطق ، مع عيب خلقي في قدمه اليسرى، " فلات فوت"، مما أحزن أفراد العائلة.

وهذا هو ذنب والدته، طلقها "محجوب" عندما علم بحالته.

أبلغه الطبيب بأن العلاج المكثف يأتي بنتيجة على المدى البعيد.

جده كان له رأي آخر، فهو يؤمن أن الحياة لا تتحني إلا لمن يقوى عليها، فهي كالبحر، عنيد مع الضعفاء، وضعيف أمام الأقوياء.

ويؤمن أن الأدوية الطبية وحدها لا تبني إنساناً، ولا تذهب بداء، فالمناهج المدرسية أيضا لا تبني عقلا دون متابعة، فجعل "محمد" شغله الشاغل.

بدأ في وضع برنامج خاص للطفل، وأمر كل من في المنزل بإتباع هذه التعاليم.

ألا يعاتبه أحد أو ينهره، أو يصرخ في وجهه، أو يضغط عليه في تناول طعام أو شراب.

ذات مرة، كانت الأسرة تجلس على العشاء.

دائماً ما يجلس على يسار جده، ليفوز بمسحات كفه بين الحين والأخر، وباللقيمات الطرية ذات المذاق الطيب.

فإذا بالحاجة أمينة" تطلب منه أن يناولها الماء، فقالت: هات "القلة" يا "محمد".

هم "محمد" بالقيام من مجلسه، لكن جده أمسك به، ومنعه من القيام لجلب "القلة".

تعجب الجميع لهذا التصرف الغريب من الرجل، فكيف له أن يعلمه العصيان على أمر ما،..؟ فمن الأحرى أن يجعل منه إنسانا مطيعا.

ثم مسح الحاج "على" شعر "محمد" بيسراه وقال: أنا عطشان يا محمد.

- حاضر جدي.

قام "محمد" مسرعاً، وأحضر "القلة" التي كانت على "صينية" ألمنيوم، وضعتها "فاطمة" في النافذة.

ابتسم "عبد الرحمن"، لقد أدرك الأمر.

أما الحاجة "أمينة" وابنتها "فاطمة" مازالتا في تعجبهما، ثم سألاه: ماذا يا حاج..؟

– إذا أردتم شيئا منه، فابتعدوا عن لهجة الأمر والنهي، ولكن أحكوا له ما تريدون.

كان لمثل هذه المواقف التعليمية أثراً كبيراً في كيفية التعامل مع "محمد"، والتي دائماً ما يكشف عنها هذا المزارع البسيط، الذي لم يتلق تعليما قط، غير الجلوس أمام العلماء في المسجد.

التزمت الحاجة أمينة" وابنتها "فاطمة" بكل تعاليم الحاج "علي"، مما ساعد "محمد" في الاقتراب إلى الأسوياء.



"محمد" مع جده

بدأ يصطحبه إلى المسجد في كل صلاة.

أعجبته حركات الوقوف والركوع والسجود، اتخذها لعبة في أول الأمر، حتى أنه كان يفعلها في المنزل كلما خلا بنفسه، وكلما طلبوا منه الصلاة.

ثم اصطحبه إلى الحقل.

فرح "محمد" عندما ركب الحمار، جده يسير بجواره على الأرض، يسحب جاموسة تسير ببطء.

رأى عالَما آخر غير عالم الصالة في المنزل، وعالم المسجد والمصلين، تبدو على وجهه علامات الغرابة والفرح معا، كلما نظر حوله.

صنع له ما تحبه الأطفال في هذا العالم الريفي.

أحضر بقايا مقعد متهالك كان في زوايا المنزل، وربطه من الجانبين، ثم علقه بحبل متين في شجرة التوت التي علي رأس الأرض، لتصبح أرجوحة.

انتفض "محمد" عندما تأرجحت به، رغم أن جده لم يتركه، فهذه أول مرة يتحرك فيها جسمه بهذا الشكل.

ثم ألفها شيئا فشيئا، حتي أصبحت شغله الشاغل في الحقل.

وعندما بلغ الرابعة، كلفه جده بمراقبة الجاموسة والحمار، وترك له مهمة تقديم البرسيم، حتى صارت ألفة بينه وبين الحمار "حمور"، والجاموسة "نوسة".

هكذا أطلق عليهما "محمد"، عندما طلب منه جده أن يسميهما.

جده يهلل له فرحا بما يعمل، يشعره بأن عمله شيء جميل، رغم بساطته، ورغم أنه يرافقه في كل خطوة.

لمس جده سرعة استجابته وانسجامه مع أرجوحته، وحماره حمور وجاموستة نوسة، ولاحظ أيضا أن بعض الحروف تقع من لسانه، والبعض الآخر ينطقه خطأ.

بدأ يتسع بعقله شيئا فشيئا بكل ما يحيط به، وكل ما تقع عليه عينه بالحقل.

أشـار بذراعيـه حولـه وقـال: هـذه شـجرة تـوت، أوراقهـا كثيـرة، وثمارها التوت" .

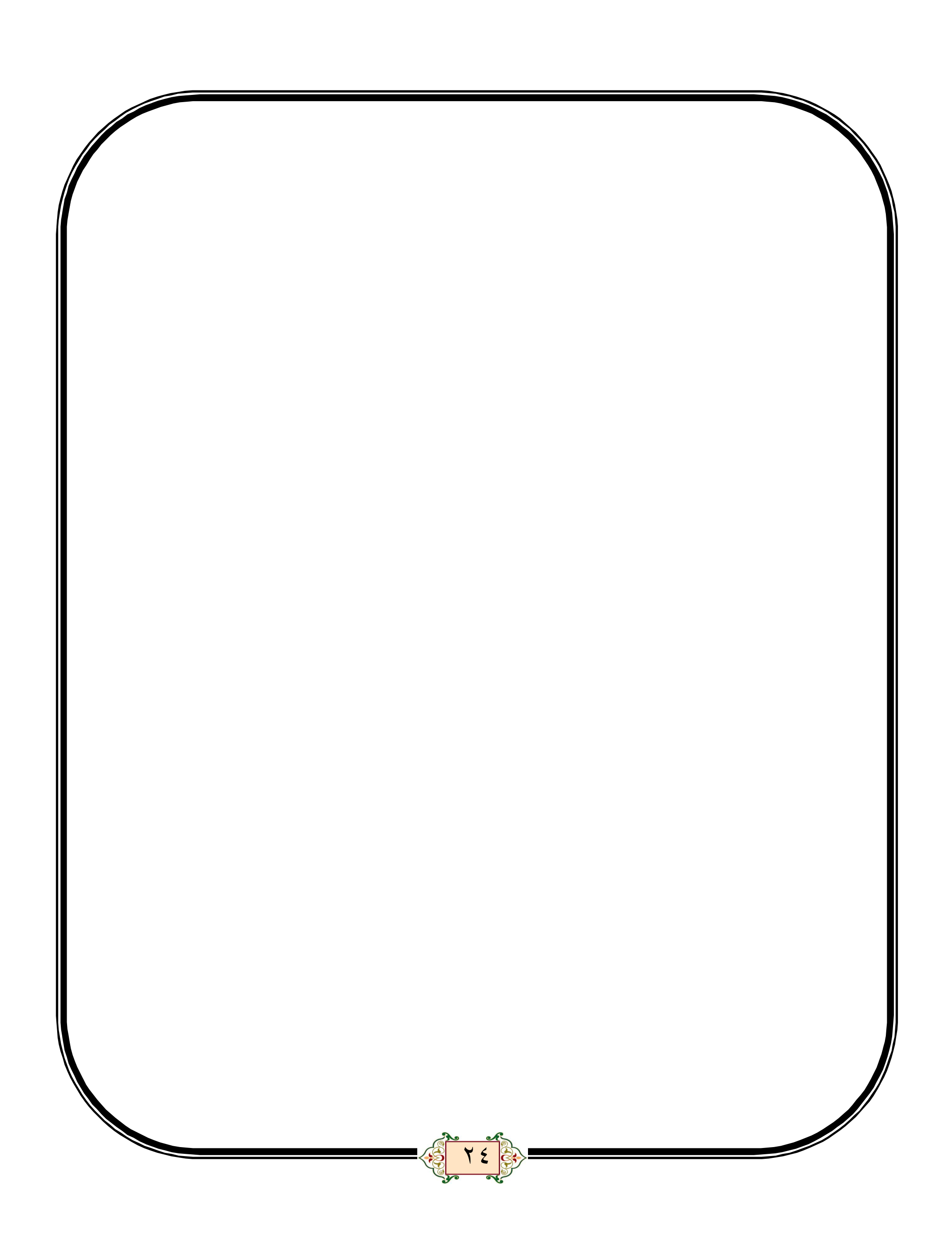
" هـذه نخلـة، طويلـة، لهـا جـذع جـاف، وأعلاهـا سـعف (أو جريد)، ثمارها البلح".

" وهـذا عـود نبـات الـذرة، وهـذه شـجرة طمـاطم، وهـذه شـجرة باذنجان".

جـده يـصر علـى أن يـردد خلفـه كـل كلمـة، ويـصحح لـه نطـق الكلمات التي تتعلق بلسانه أو تقع منه، كما يصر على ذكر كل شيء بلونه وخصائصه وحجمه، ليلفت انتباهه إلى الفرق بين كل نبات.

لم ييأس من التكرار طوال النهار، فهو يعرف أن عقل "محمد" لا يحتفظ بشيء إلا بالتكرار.





محمد والعصافير

انـشغل "محمـد" بالعـصافير وهـي تمـارس حياتهـا علـي شـجرة التـوت، تتنقـل بـين أغـصانها، ثـم تحـط علـى الأرض، تنقـر فيهـا لحظات، وتطير مرة أخري إلي الشجرة، أو تطير في الهواء.

يناديهـا وهـو جـالس علـي أرجوحتـه: عـصفورة...العبـي معي...تمرجحي معي .

تطير كلما حاول الاقتراب منها، فيغضب "محمد" ويذهب إلي جده، يشتكي له لأن العصافير لا تلعب معه.

جده يبتسم، ويخبره أنها تخاف منه، لأنه كبير وقوي.

- نعم أنا كبير وقوى .

ذات مرة، كـان جالسا علـى أرجوحتـه، وقعـت عـصفورة بـالقرب منه، أسرع إليها، فلم تطير، أمسكها بسهولة.

أسرع إلي جده الذي كان يعمل بفأسه في الأرض.

- جدي جدي .

- تعال يا "محمد" .

- لقد أمسكت عصفورة .

- أنت شاطر..كيف مسكتها.؟

- نعم أنا شاطر..أمسكتها قبل أن تطير.

رأى جده أن إحدى رجليها مكسورة.

– آه يا "محمد"..رجلها اليمين مكسورة.

انطفأ بريق الفرح في وجه "محمد"، امتلأ رحمة وشفقة بها، حتى بدت دموعا في عينيه.

لكن جده أسرع قائلا: لا تقلق.. سوف نعالجها لتطير إلي أمها.

- كيف..؟!

- تعال معي.

ترك فأسه، وذهب يبحث عن قطعة قماش قديمة، حتى عثر على واحده، ثم قال : تعال يا دكتور "محمد" عالج العصفورة

- أنا دكتور يا جدي .

- نعم .. الآن أنت دكتور ، وسوف تعالج العصفورة، امسكها برفق .

أمسك "محمد" العصفورة من جناحيها برفق شديد، ولف جده رجلها بقطعة القماش.

ثم ذهبا بها إلي مكان بعيد نوعا ما، بجوار إحدى الأشجار، وقال له: ضعها هنا يا "محمد".

- لماذا يا جدي.

- أمها سوف تأتي لتأخذها

وضعها "محمد" برفق، وعاد مع جده إلي شجرة التوت والأرجيحة.

وهناك سأله: هل ستعود إلى هنا يا جدي.؟!

- نعم سوف تعود غدا مع أمها.

- هل سيعود معهما جدهما.؟!.

ابتسم جده، وضمه إلي صدره، وقال: نعم.. مع جدها وأبوها وأمها وأخواتها.

لاحظ جده أن "محمد" بدأ يسأل، وبدأ يشعر بالكائنات حوله، وهذه إشارة أن ذاكرته بدأت تمسك بالأحداث .

في الصباح، أمر ابنته "فاطمة" أن تحضر له حفنة من مخزون القمح من فوق سطح المنزل، وتضعها في كيس.

فأحضرته مسرعه، وناولته له.

ثم قال لـ "محمد" وهو يركب الحمار.

- امسك يا "محمد".

- ما هذا يا جدي؟

- هدية للعصافير التي ستأتي لتشكرك.

- ولم ستشكرني.؟!.

- لأنك ساعدت ابنتهم، وربطت رجلها المكسورة، ويجب أن تقدم الطعام لضيوفك الصغار.

فرح "محمد"، واحتضن الكيس في صدره، وحث الحمار على الإسراع، يريد أن يرى ضيوفه العصافير.

وعندما وصلا إلي الحقل، كانت العصافير تحط على الأرض وتطير كعادتها.

صاح "محمد": العصافير ينتظرونني يا جدي.

- نعم يا "محمد".. ارمي إليهم ببعض القمح.

قبض بكفه الصغير حفنة من الكيس، وألقاها على الأرض.

تزاحمت العصافير علي حبات القمح، علت ضحكاته، وأشار إلي عصفور صغير.

- جدي جدي.. لقد شفيت العصفورة.. ها هي هناك.

ضحك جده: نعم إنها هي.، لقد شفيت يا "محمد".. ألق حفنة أخرى.

فألقى حفنة أخرى، ثم أخرى، حتى فرغ الكيس.

***

بعد العشاء قال له جده: تعال نحكي حكاية .

- حكاية ماذا.؟

- حكاية الشاطر "محمد" والعصفورة .

- ها ها..احك يا جدي.

"محمد" ولد شاطر، كان يلعب علي أرجوحته.

قاطعه "محمد": أنا شاطر وألعب علي أرجوحتى.

- نعم يا "محمد".

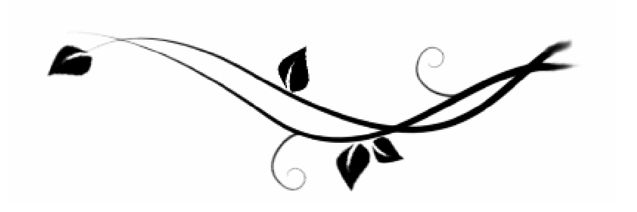
ثم واصل جده قائلا: "محمد" ساعد العصفورة، وربط رجلها المكسورة، والعصفورة ذهبت لأمها، وفي اليوم التالي، جاءت العصفورة وأمها لتشكر "محمد".

قاطعه "محمد": وجدها جاء معها، وأبوها وأخواتها.

قهقه جده عاليا وقال: نعم يا "محمد" .

ثم قبّله وواصل الحكاية.

كان جده يكرر هذه الحكاية مرات ومرات في اليوم والليلة، حتي حفظها "محمد" جيدا، وبدأ هو يحكيها بنفسه عليهم.



محمد والحكايات

أدرك جده أن للحكاية أثر طيب في خيال وعقل الطفل.

فأصبحت ورد ليلي قبل النوم، يحكى له حكاية كل ليلة، ويطلب منه أن يحكيها بنفسه.

ثم يختم الرجل يومه ببعض سور القرآن الكريم القصيرة، ويردد "محمد" خلفه، حتى يأخذهما النوم.

أراد الحاج علي أن يتسع بعقل "محمد" أكثر، فحكي حكاية ناقصة، فقال: الأمير "محمد" يحب أن يأكل السمك.

ذهب ليصطاد السمك.

قال "محمد": أنا الأمير.. وسوف أصطاد سمكاً كثيراً.

قال جده: نعم نعم .

ثم واصل جده قائلا: كلما وضع السنارة في الماء، تتعلق بها سمكة كبيرة.

حتى أصبح معه سمك كثير.

وعاد إلى أمه لتشوى السمك.

في الطريق رأى الكلب كوكو، قال له: هو هو .. كيف حالك يا أمير "محمد"؟

قال الأمير "محمد": بخير والحمد لله.

– أنا جوعان جدا يا أمير "محمد".

قال الأمير "محمد" : معى سمك.. هل تأكل السمك

- أنا لا أأكل السمك.. أنا أأكل اللحم والعظم والخبز .

- انتظر.. معي سندوتش خذه .

وأعطى الأمير "محمد" سندوتش للكلب كوكو، فأكل وشبع، وعادت إليه قوته، ثم قال: شكراً يا أمير "محمد"، الآن عادت لي قوتي.

- عفوا أيها الكلب كوكو .

- ممكن نكون أصدقاء .

- نعم .

وصـار الأميـر "محمـد" وخلفـه الكلـب كوكـو، فـي طريقهمـا إلـى المنزل.

فجأة ..اعترضـهما أسد ضـخم، وقف فـي وسط الطريـق، وقـال: أنا الأسد القوى.. أريد أن آكل أي إنسان

قـال الأميـر "محمـد": لا يـستطيع أحـد أن يـأكلني..لأننـي قـوى، ومعي عصا قوية، سوف أضربك بها.

– لا أنا أسد، ولى أسنان ومخالب قوية.

ضـحك الأميـر "محمـد"، ثـم أمـسك العـصا، وهجـم علـى الأسـد، وضـربه بقـوة، لكـن الأسـد، رجـع للخلـف، ثـم هجـم علـى الأميـر "محمد".

طـوال الحكايـة، كـان جـده يراقبـه، يـرى انفعـالات وجهـه، يعـبس مرة، وتبدو الراحـة عليـه مرة أخرى، ويفتح فمه وعينيه في دهشة، يتعجل الحدث القادم.

لكـن جـده توقـف عـن الحكايـة، فقـال "محمـد": مـا بـك يـا جـدي. أكمل الحكاية .

- سوف أكملها الليلة القادمة .

- أريد أن أعرف ماذا فعل الأمير"محمد" مع الأسد .
- الليلة أنا مرهق، وأريد النوم.

رغم إلحـاح "محمد" الشديد، إلا أن جده أصر على عدم إكمال الحكاية، يريد بذلك معرفة مدى متابعة ذاكرته لما يسمع، وليعرف هل تتعلق بذاكرته منذ المر ة الأولى أم لا.؟

وفـي الليلـة التاليـة، وعندما جاء وقت الحكايات، طلب "محمد" من جده إكمال الحكاية، فقال جده: قل لي عن الحدث الذي وقفنا عنده أمس .

فقال "محمد": عندما هجم الأسد على الأمير "محمد".

ابتسم جده في سريرته، وطلب منه أن يحكي ما سمعه أمس من الحكاية، فقص "محمد" على جده الحكاية من أولها، حتى اللحظة التي توقف عندها جده.

شكر الله في نفسه، ثم أكمل قائلاً: وعندما هجم الأسد عليه، رجع الأمير "محمد" إلى الخلف خطوة، ثم هجم الكلب كوكو على الأسد، فأمسكه من رقبته، ونزل الأمير "محمد" على الأسد ضربا بالعصا.

والأسـد يـصرخ ويقـول: أسـف يـا أميـر "محمـد"، لـن أعتـرض طريقكما مرة أخرى، ولن أأكل أي إنسان بعد اليوم.

ثم هرب الأسد من أمام الأمير "محمد" وهو يبكي، فالتفت الأمير "محمد" للكلب وقال: شكرا أيها الكلب كوكو لأنك ساعدتني وأنقذتني من الأسد .

- عفوا نحن أصدقاء يا أمير "محمد"، غير أنك أعطيتني الطعام لأكون قوياً .

وهنا ضحك الأمير "محمد" والكلب كوكو، ورجع البيت لأمه، التي قامت بشوى السمك، وأكل كثيراً حتى أصبح قوياً.

فصاح "محمد" وقال: من اليوم سوف أأكل كثيراً حتى أكون قوياً.



جده يصنع أصدقاء

أدرك الحاج "علي" بفطرته، أن المعلومات التي اكتسبها "محمد" عن العالم حوله، لا تكفي لخلق إنسان سوي، فلابد من الاختلاط بالبشر ، فلا يمكن لبشر أن يعيش وحيدا، مهما كانت حالته، فالاختلاط بالناس يزيد من نشاط الفكر عند الإنسان.

ولاحظ أن "محمد" تنتابه فأفأة وتأتأة، إذا تحدث مع من لا يعرفه.

عرف بفطنته أنها رهبة من الغرباء عنه، ولا يوجد علاج لهذه الفأفأ والتأتأة، أفضل من الاختلاط والتلاحم، والتزاحم مع الآخرين.

ولذلك قرر أن يطلق "محمد" ساعة في اليوم، يختلط فيها مع أولاد الجيران في الشارع، ولكن.. بعد أن يجهزه ويهيئه لهذا الأمر، ليساير الأطفال في ألعابهم وأفكارهم.

بعد صلاة العصر، جلس على المصطبة، نادي على بعض الأطفال في عمر "محمد"، كانوا يلعبون بالنحل بعيدا عنه، وطلب منهم أن يلعبوا أمامه.

وافق الأطفال، وتسابقوا في اللعب بالنحل.

الحاج علي يتابع باهتمام، ويركز على الألفاظ والمصطلحات الخاصة باللعبة، حتى حفظها عن ظهر قلب.

ثم قام واشترى ثلاث نحلات، إحداهم مختلفة، ثم ناولهم لـ"محمد"، الذي فرح كثيرا، وسأله: متى نلعب بهم يا جدي..؟

- عندما نذهب للحقل.

- ومتى سنذهب؟

- الآن .

هلل "محمد" فرحا، وأسرع بإحضار الحمار من الزريبة، وجاء به بجوار المصطبة، ثم صعد فوق المصطبة، ومنها على ظهر الحمار.

وعلى رأس الأرض، تحت شجرة التوت، رسم الحاج على دائرة على الأرض، وطلب من "محمد" أن يضع النحلة المختلفة في الدائرة الأولى.

ثم أعطي "محمد" نحلة، وبدأ يعلمه كيف يلف الخبط عليها، ثم يصوبها فوق النحلة التي في الدائرة، حتى يخرجها من الدائرة.

وعلمه كيف يحمل النحلة على يده وهى في دورانها.

كان "محمد" يستجيب لمعرفة كل شيء بسرعة مذهلة، يتابع جده في كل حركة يقوم بها، حتى أتقن اللعبة، وكذلك ألعاب أخرى.

ثم أطلقه في الشارع مع الأطفال، وراح يتابع كل حركاته من جلسته على المصطبة .

وبذلك أصبح لـ "محمد" أصدقاء من الجيران، وعالم جديد أتاحه جده له بخبرته وحنكته الحياتية.

ولم يكتف جده بذلك فحسب، بل طلب من "محمد" أن يدعو أصدقائه لزيارته في الحقل القريب، ليشاركوه اللعب على أرجوحته، ويأكلوا من شجرة التوت، وبلح النخل.

فرح الأطفال بهذه الدعوة، وذهبوا معه إلي الحقل.

الكثير منهم يعرف أسماء الطيور والحيوانات والحشرات، لأن أغلبهم أبناء فلاحين مثله.

وقليلهم لا يعرف الكثير، لأنهم أبناء أصحاب حرف أخرى.

لذلك كانوا يسألون عن أسماء الأشياء التي لا يعرفونها.

يتولى "محمد" الإجابة عن كل سؤال، دون أن يتدخل أحد من الأصدقاء بكلمة.

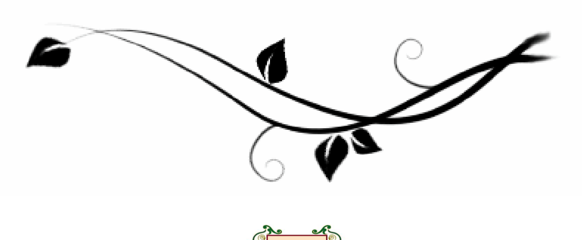
وهذا يعود إلى نزعة القيادة التي زرعها فيه جده و"عبد الرحمن".

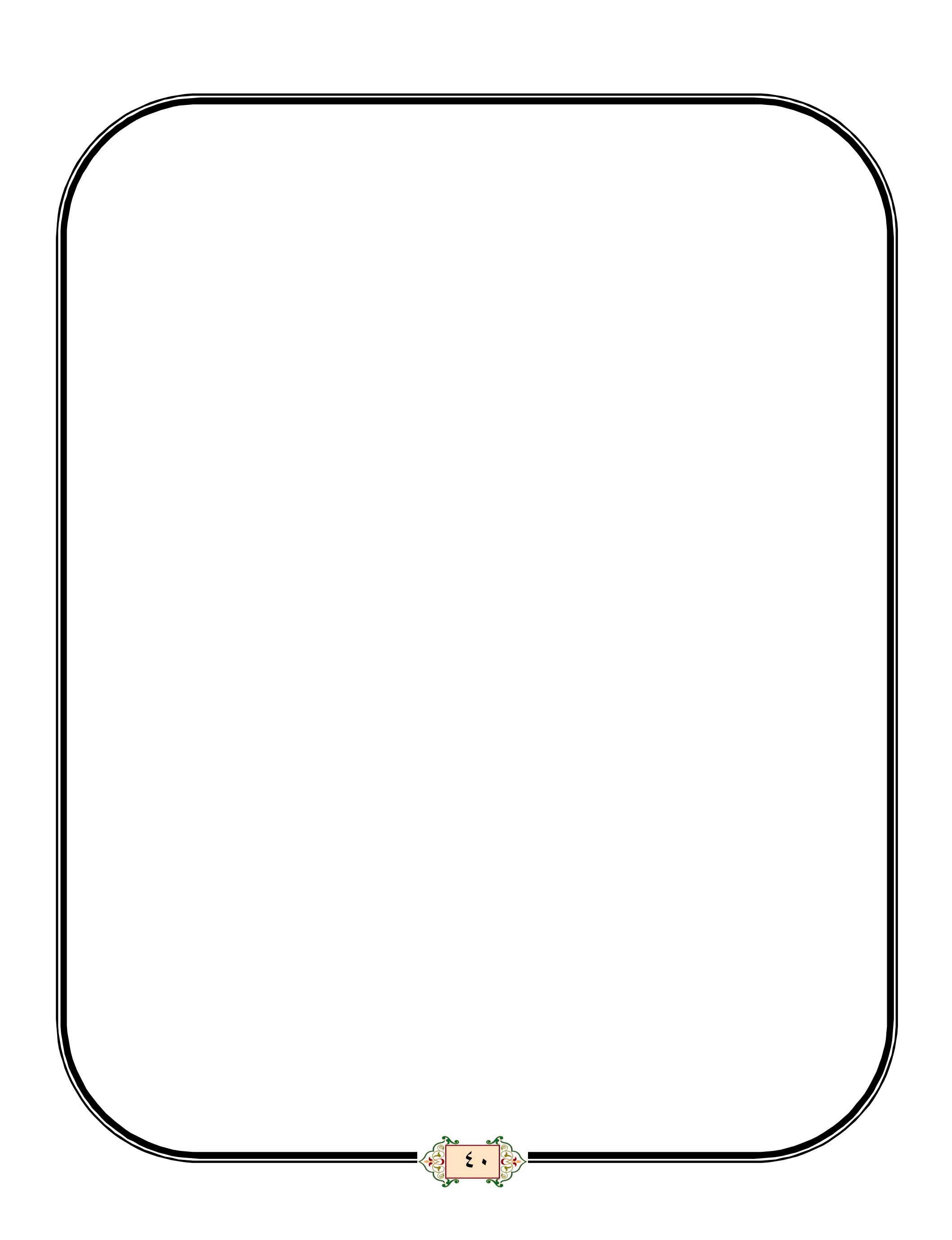
حتى أن "محمد" تولى ترتيب أدوار أصحابه على الأرجوحة، ويعطي التعليمات.

لا تنظر إلى الأرض، أو إلى السماء حتى لا يصيبك الدوار.

- انظر أمامك .. تشبث بالحبل جيداً حتى لا تقع.

كان الحاج "علي" له هدف من وراء ذلك، وهو خلق أصدقاء لـ "محمد"، يألفهم ويألفونه، أصدقاء يشاركونه المدرسة بعد شهور، منهم من هم أكبر منه بعام أو عامين، ومن هم في عمره ، وبذلك ينزع منه الرهبة التي تنتاب الكثير من الأطفال في أول أيام الدراسة.





مرحلة جديدة

في حجرة الصالون، "محمد" يجلس مع جده وجدته ووالدته، ينتظرون مجيء "عبد الرحمن" من السفر، كعادتهم كل ليلة.

سأل "محمد": ماذا سيحضر لي بابا هذه الليلة؟

دائما ما يكرر هذا السؤال، ودائما ما يسمع التخمينات والتنبؤات بما يحضره "عبد الرحمن".

وعندما سمع رنين الجرس، أسرع إلي الباب.

– خذ منى يا "محمد" .

هكذا قال له "عبد الرحمن".

كانت ألواحا من الورق الأبيض، وقلم فلومستر خط عريض، وعلبة الألوان، وكراسة رسم كبيرة.

- هل كلها لي .

- نعم.. سوف أعلمك كيف ترسم الحروف .

صاح "محمد" وهو يجري إلي الداخل: جدي جدتي ماما..سوف يعلمني أبي كيف أرسم الحروف.

بعد العشاء، دخل "عبد الرحمن" حجرته وخلفه "محمد".

واحضر مقصا صغيرا، وقص لوح الورق علي هيئة مربعات متساوية، بعدد الحروف الهجائية، وكتب عليها الحروف بخط عريض، ووضعها على المكتب.

ثم قسم اللوح الآخر إلي مربعات متساوية دون أن يقصها، وكتب في كل مربع حرف من الحروف، ثم علقها على الحائط.

وطلب من "محمد" أن يختار قلماً من علبة الألوان، فاختار اللون الأحمر، ثم طلب منه أن يرسم حرف (أ) في كراسة الرسم، وأشار إلى الحرف في اللوحة التي على الحائط .

نظر "محمد" للحرف مرات ، ثم رسمه بشكل مقبول، فهلل "عبد الرحمن".

ثم طلب منه أن يأتي بالورقة التي فيها حرف (أ) من الأوراق المربعة التي على المكتب.

فـأتي بـه فـي وقـت أقـل مـن الوقـت الـذي اسـتغرقه فـي رسـمه، فصفق "عبد الرحمن" مهللاً.

- أنت شاطر يا " "محمد".

وهكذا حرف الباء والتاء.

وطلب منـه أن يرسم هذه الحروف الثلاثـة في كراسـة الرسم مرة، وفي كراسة أخرى أحضرها معه.

فرح "محمد" بهذه الطريقة، ظنا منه أنها لعبة من الألعاب، وخرج إلي حجرة الصالون.

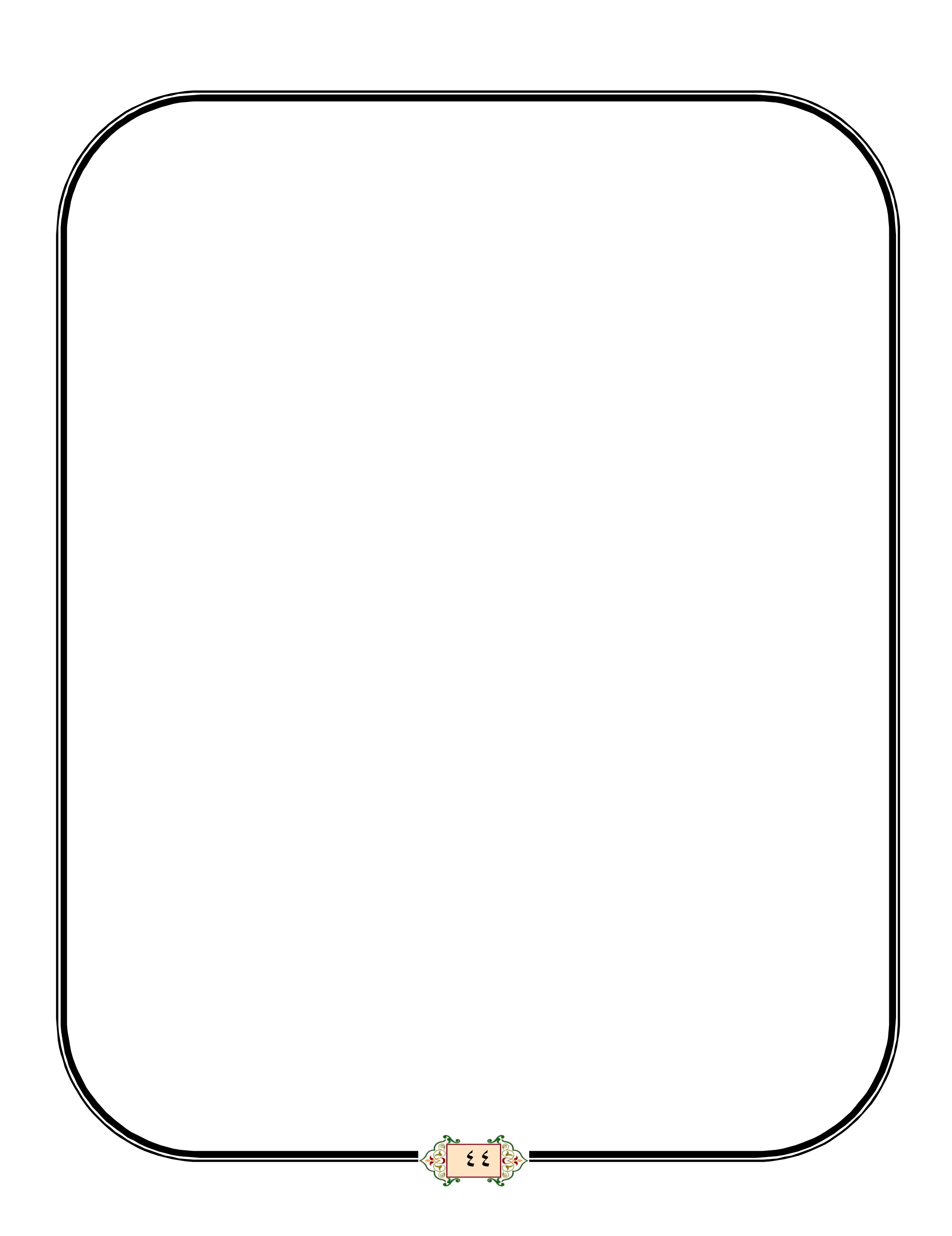
- جدي جدي.. أنظر ماذا رسمت.

- ماذا ؟

- رسمت حرف (أ) وحرف الباء، وحرف التاء.

احتضنه جده وقبله، وطلب منه أن يترك "عبد الرحمن" كـي ينام، على أن يكتب هذه الحروف مرات ومرات في النهار.





الحاج علي في محو الأمية

ذات ليلة، لاحظ الحاج "علي" أن "عبد الرحمن"، يجاهد في إخفاءه حزن شديد.

دخل عليه حجرته.

- مرحبا يا حاج.

- ماذا بك ؟

– "محمد" يحتاج مدرس خصوصي ليؤهله للمناهج الدراسية، وللأسف لم أجد.

سكت الحاج علي لحظة، ثم ابتسم وقال: طالما أننا لم نجد المتابع المتعلم، فمن الممكن أن نجد المنافس له ويذاكر معه.

- ماذا تقصد..؟.

- إذا وجدنا المنافس الذي يتعلم كما يتعلم "محمد"، سوف يكون حافزاً له، ويساعده في استذكار دروسه.

- نعم... ولكن من الصعب أن نجد تلميذاً يستذكر معه طوال الوقت.

- لا صعب ولا حاجة.. التلميذ موجود.

اقترب "عبد الرحمن" من والده أكثر، وسأله:

- من يكون..؟

- أنا..

تعجب "عبد الرحمن"، فقال والده: من اليوم، سوف أذهب لأسجل اسمي في محو الأمية.

- فكرة رائعة جداً.. وبهذا يجد منافساً له، ويستذكر دروسه.

– والآن.. علمني أول ثلاث حروف.

أسرع "عبد الرحمن"، وأخرج الحروف الثلاثة، {أ}و{ب}و{ت}، من الورق الذي على المكتب.

أشار له عليهما في اللوحة المعلقة على الحائط، ثم أخرج له كراسة مثل "محمد"، وطلب منه أن يكرر كتابة الحروف مع الطفل مرات كثيرة.

تحمس الحاج "علي"، وأمسك القلم، وبدأ يتدرب على رسم الحروف.

* * *

عندما استيقظ "محمد" من النوم، بادره جده قائلا: أنا أجيد رسم الحروف .

ضحك "محمد"، وقال: كيف وأبي لم يعلمك مثلما علمني.؟.

– نعم .. أنا تعلمت.. هيا لنتسابق.. من يكتب أسرع وأحسن من الآخر..؟

وأمسك كل منهما كراسة وقلما، تعمد جده البطء في الكتابة، حتى انتهى "محمد"، وصاح فرحا.

– أنا سبقتك يا جدي.. أنا أسرع منك.. وخطى أجمل من خطك.

يتظاهر الجد بالانهزام: ويقول: نعم .. أنت أسرع يا "محمد"، هيا نكررها مرة أخري.

يسرع "محمد" إلي جدته الجالسة في البهو، يريها كراسته.

- جدتي جدتي، أنا أكتب أسرع من جدى، أنا أحسن منه.

تفرح جدته، وتكافئه بقبلة، ثم يجري إلي أمه في المطبخ، ويطلعها كما أطلع جدته، فتكافئه بقبلة وشيء من الحلوى.

وهكذا كرر الجد محاولة التحدي مرات ومرات، وفي كل مرة كان يراقب سرعة يد "محمد" على الورقة، يراها تزداد مرة بعد أخرى، حتى تعلقت الحروف بعقله.

* * *

بعد صلاة العشاء، حمل الحاج على كراستين وقلمين وممحاة، واصطحب "محمد"، وتوجها إلى المدرسة الابتدائية في البلدة.

في الطريق، التقي بالكثير من أهل القرية، فرادى وجماعات.

لم تعهد الناس خروج الحاج علي من بيته بعد العشاء إلا لأمر مهم ، لأن بيته في آخر القرية، ولذلك.. تعجب الناس، ولاحقوه بالسؤال: إلى أين يا حاج على..؟

- إلى محو الأمية.

الإجابة مثيرة لضحك البعض، حتى أنه سمع تعليقات ساخرة.

بعد ما شاب ... ناوى تدخل كلية الطب ... كنت بعقلك..

لم يبال الحاج علي بهذه التعليقات الساخرة، بل كان يسخر منهم بابتسامة خفيفة، وسار مع "محمد"، وتبعهما عدد من الرجال، ودخلوا المدرسة، وسجلوا أسمائهم في فصول محو الأمية.

فرح الحاج على باستلام الكتابين من المسئولين، وجلس في أول صف أمام المدرس، يسمع له بإمعان شديد، بجواره "محمد"، يسمع هو الآخر، ويكتب في كراسته حرف الألف كما هو موجود على السبورة.



الأستاذ محمد

منذ هذا اليوم، حرص الحاج"على" أن يأخذ معه كراسة وقلما في كيس من البلاستيك، ليذاكر في أوقات القيلولة تحت شجرة التوت مع "محمد"، يتسابق معه في كتابة الحروف.

ولم ينس أن يأخذ معه ألعاب المكعبات، حتى يتسابق معه في تركيب صورها، كلما شعر "محمد" بالملل من الكتابة.

اجتهد الحاج علي في تحصيل علم القراءة الكتابة، وكان الهدف الأساسي ليس التعليم من أجل نفسه، ولكن ليساير "محمد" ويعلمه في غياب "عبد الرحمن".

وسرعان ما تعلم الحروف، ثم تركيبها لتصبح كلمة، ثم تكوين جمله، دون أن يمل من التكرار.

فكر "عبد الرحمن" في طريقة تجعل "محمداً " يكرر دروسه دون ملل، فعينه أستاذاً علي جده وجدته ووالدته، يعلمهم كما يعلمه

"عبد الرحمن"، ويقرر عليهم واجبا يومي، ويقوم هو بتصحيحه وإعطاء الدرجات.

استقبلت الأسرة هذه الفكرة بترحاب، وخصصوا ساعة كل ليلة، يجلسون فيها على الأرض، و"محمد" يقف أمامهم عند السبورة، يكتب بالطباشير، ويشير بأصبعه، ويسألهم واحدا بعد الآخر.

أتقن أفراد الأسرة تمثيل دور التلاميذ، يرفعون أصابعهم عند كل سؤال "أنا يا أستاذ.. أنا يا أستاذ" .



العصا الطويلة

- متى تأخذني معك في السفر..؟.

- متى أذهب للمدرسة..؟.

لم يمل "محمد" من هذين السؤالين كل يوم وليلة، ولم يمل "عبد الرحمن" أو جده من الإجابة بطريقتين.

حينما تتعلم القراءة والكتابة جيداً.

أصبح السفر ودخول المدرسة، من الأحلام الملحة عند "محمد"، ولكن لن يبلغ أحلامه هذه إلا إذا أتقن القراءة والكتابة كما قيل له.

ولذلك بدأ يسعي أكثر الوقت للقراءة في كتاب محو الأمية، ويتصفح المجلات الخاصة به في ركن المكتبة الكبيرة التي في المنزل، ويسأل جده أحيانا عن بعض الكلمات، وينتظر "عبد الرحمن" حتى يقرأ له قصة من المجلات.

حتى أنه نقل قصة بخط يده في إحدى الكراسات، وأعاد كتابة الكلمات الذي تعلمها منذ عام بخط أفضل.

ومراجعة دروس الحساب كتابة في كراسة أخرى.

انبهر "عبد الرحمن"، وقبله جده مرات، وقال: "محمد" لا يعرف المستحيل".

وعده بسفر قريب معه.

هلل "محمد" فرحاً، وقال: ومتى أذهب إلى المدرسة : باقي عدة شهور، لأنك مازلت صغيراً .

- متى اكبر..؟

وهنا أجابت جدته قائلة: عندما تصبح في طول عصا جدك.

اقترب "محمد" من العصا، كانت في ركن خلف الباب، وقف بجوارها، فوجدها أطول منه بقليل.

أعادها إلى مكانها، وفي نفسه انكسار، لاحظه الجميع.

لكن جده غمز إليهم بعينه، أن يتركوه ويراقبوا ماذا يكون منه.

ظل "محمد" يفكر في وسيلة يجتاز بها عقبة العصا التي هي أطول منه، كما اجتاز عقبة القراءة والكتابة.

شعر بالعداء بينه وبين العصا، تمنى أن يخفيها من المنزل، ولكنه يدرك أن جده لا يستطيع الاستغناء عنها.

وفجأة.. وقف "محمد" أمام الأسرة، وسأل نفس السؤال الذي لا يمل منه أبدا : متى تأخذني للسفر معك يا أبي..؟

نظر "عبد الرحمن" مبتسماً، فلا حقته جدته بنفس إجابة أمس: عندما تكبر وتصبح طول العصا.

سحب "محمد" العصا من مكانها، ووقف بجوارها على أطراف أصابعه، ربما تتساوى رأسه برأس العصا.

الأسرة تغرق في الضحك .

كرر الوقوف أكثر من مرة على أطراف أصابعه، ولكن العصا مازالت أطول منه. سحب وسادتين صغيرتين من فوق الكنبة، وضعهما على الأرض، ثم وقف عليهما، وصاح قائلا: جدي جدي.. أنا أطول من العصا.

انفجرت الصالة بالضحك.

لكن "فاطمة" قالت: عندما تصبح طول العصا دون أن تقف على الوسادتين.

هز رأسه في يأس، وعاد يجلس على طرف الكنبة التي يستند إليها جده بظهره، يقلب في العصا بنظراته، يبحث عن السر الذي جعلها أطول منه، يفكر في طريقة يحطم بها هذا الفارق الذي بينه وبين العصا.

قرر هو أن يحسم الصراع لنفسه، بعيدا عن الاستعانة بالوسادتين أو بأي شيء آخر يزيد في ارتفاعه.

لمعت في رأسه فكرة، ابتسم، لم يشعر به أحد وهو يتسلل من جلستهم، وفي يده العصا.

دخل المطبخ، وأخذ سكينا حادة، ونزل في الدور الأول، دخل الزريبة، وبدأ في قطع جزء كبير من أسفل العصا، ثم وقف بجوارها، فإذا هو أطول منها بكثير.

صعد مسرعا حيث تجلس الأسرة، ووقف أمامهم، ثم هلل قائلاً : جدي جدي.. لقد أصبحت أطول من العصا.

امتلأت الصالة بالضحك مرة أخرى.

ثم همت أمه بمعاقبته، فألقى نفسه في أحضان جده، الذي منعها من معاقبته، وأخذه بين أحضانه، وقبله مرات.

قال "عبدالرحمن": هل تسافر معي غدا..؟

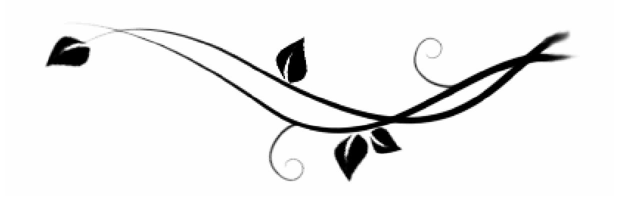
هلل "محمد" فرحاً، وقبله مرات، فاستطرد "عبد الرحمن" قائلا: لكن لى شرط.

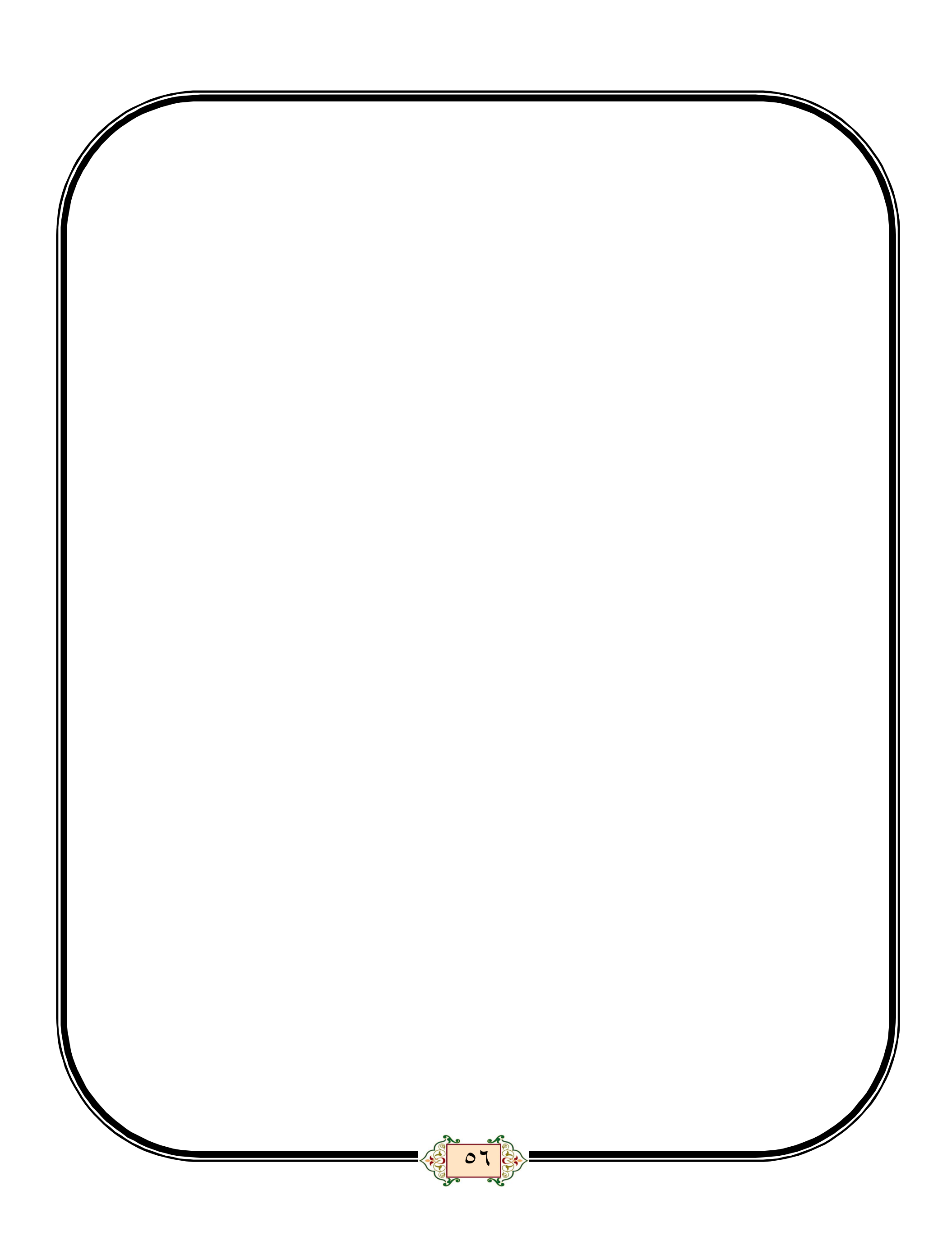
- ماذا..؟

- احضر معك كراسة وقلم، لتكتب كل شيء تراه، وتكتب أحداث النهار كلها، منذ أن نخرج من المنزل، حتى عودتنا إن شاء الله.

- نعم نعم.. سوف أكتب كل شيء كما تريد.

ابتسم جده، أدرك أن "عبد الرحمن" يريد أن يجذبه للكتابة بطريقة أخرى.





"محمد" يدّون كل شيء

وفـي صـباح اليـوم التـالي، سـأل "محمـد" جـده : مـاذا تحـب أن أحضر لك يا جدي هذا اليوم..؟

ابتـسم جـده، وقـال: أن تعـود أنـت وبابـا بالـسلامة إن شـاء الله.. هذه هديتي من الله يا "محمد".

- أعرف أنك غضبان منى يا جدي..؟

- لماذا ؟

- لما فعلته بالعصا.

- ضـحك جـده عاليـا، فقـال "محمـد": سـوف أحـضر لـك عـصا أفضل منـها اليوم.

ثم ود ع "محمد" جده وجدته ووالدته، ووعد كل منهم بـهدية.

وعلـى المقهـى، كـان العـم "بركـات" صـديق "عبـد الـرحمن"، والـذي يرافقه السفر بـعربته كل يوم.

تناولوا الفطور، وأكل "محمد" الجيلاتي الذي يحبه، ثم طلب منه "عبد الرحمن" أن يكتب الأحداث التي مروا بها منذ أن خرجوا من المنزل.

فتح "محمد" وكتب وسط السطر بسم الله الرحمن الرحيم.

ثم كتب رحلة إلى مدينة الزقازيق.

وأملاه "عبد الرحمن" الأحداث كلها، منذ أن ودع الأسرة، حتى الجلوس على المقهى، وكم سندوتشاً تناوله، وماذا أكل وشرب، وما هو الثمن الذي دفعه لصاحب المقهى.

لا شك أن "عبد الرحمن" كان يراقب كل ما يكتب، ويصلح له الأخطاء الإملائية، ويمليه حروف الكلمات التي تصعب عليه.

ثم غادروا المقهى، وركبوا العربة، واتجهوا إلى محل الحاج رفيق، الذي استقبله قائلا: أهلاً أستاذ "محمد"..

لعبت كلمة أستاذ في نفسه دوراً كبيراً، امتلأ صدره بالهواء.

سلم عليه بحرارة، وقال: أهلاً يا عم الحاج.

دس الحاج رفيق عشرة جنيهات في جيب "محمد"، زادت من حماسته وحركته، واندفع وسط العمال، حمل معهم البضاعة إلى العربة.

وبعد قليل، خرجت بهم العربة من مدينة المحلة الكبرى، في طريقها إلى الزقازيق.

فأخرج "محمد" كراسته، وكتب عن لقائه بالحاج رفيق، وكيف استقبله.؟. ثم راح يسأل "عبد الرحمن" عن كل بلدة يمرون عليها، يكتب الأسماء في الكراسة.

وقضي "محمد" الوقت بين مراقبة الطريق، والسؤال والكتابة في الكراسة.

ثم كتب أسماء التجار الذين مروا عليهم، وما هي البضاعة التي أخذها كل تاجر، وكم كان الوقت..؟ وما هو نوع طعام الغداء، واسم المطعم.

طلب "محمد" من العم بركات أن يذهب بهم إلى محلات بيع العصي، اختار عصا هدية لجده، واشترى هدية لجدته ووالدته.

حمل العصا فرحاً، كانت أطول منه، وسار بها سعيدا، يتعجل لقاء جده، ليرتمي في حضنه، ويقدم له هديته.

وعندما دخل المنزل، أبدى الرجل إعجابه الشديد بهدية "محمد"، وشكره لحسن اختياره، ثم ضمه لصدره طويلاً .

وبعد أن وزع "محمد" الهدايا، طلب جده أن يحكي لهم عن رحلته، منذ أن خرج من المنزل حتى هذه اللحظة.

فتح الكراسة، وبدأ يقرأ منها أحداث النهار، ساعده "عبد الرحمن" في نطق الكلمات التي تصعب عليه.

نظر الحاج على إلى "عبد الرحمن" ثم أومأ له بابتسامه، وأدرك أن الرحلة لم يكن الغرض منها الفسحة فقط، بل هي طريقة جديدة لممارسة القراءة والكتابة دون ملل أو كلل.

حين استلم الحاج "على" شهادة اجتيازه محو الأمية، امتلأ المنزل بالفرحة والسرور.

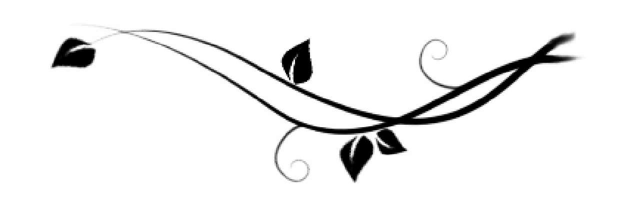
نظر إلى الشهادة، أعجبه أن يري أسمه مكتوبا بخط جميل على ورقة مختومة بختم النسر.

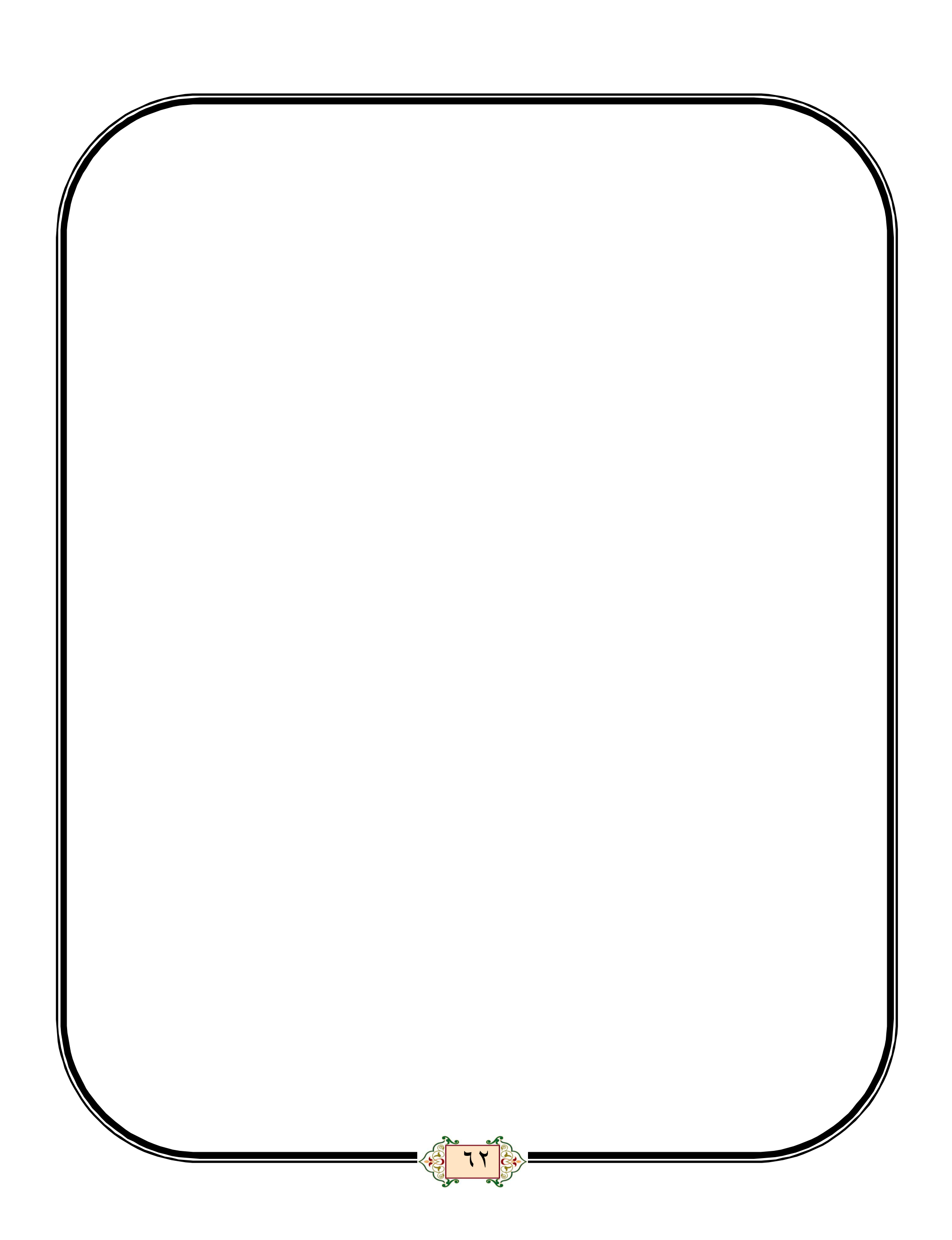
أعاد قراءتها مرات، وفي كل مرة يقف عند أسمه، يشعر بنشوة النصر على الأمية التي كان عليها.

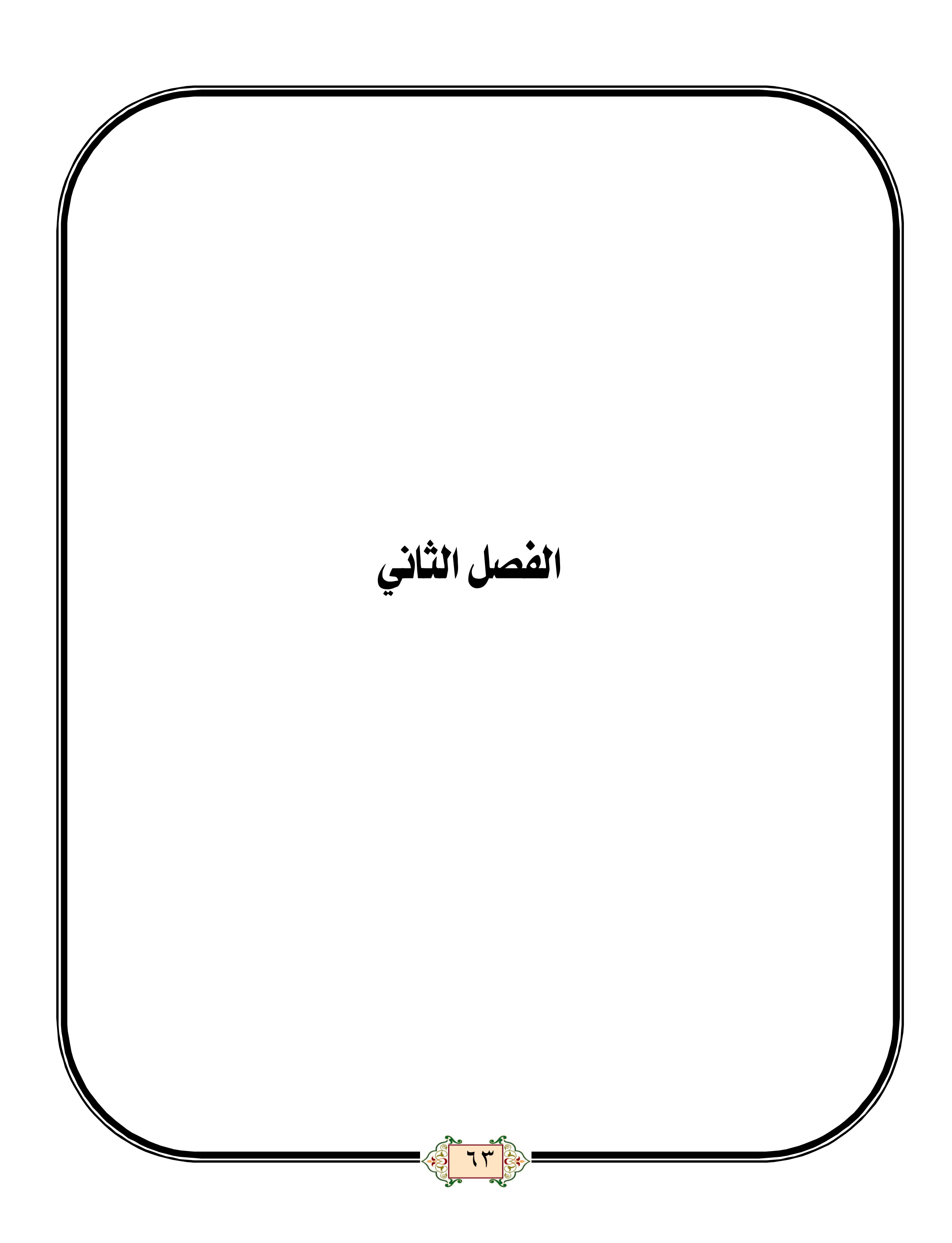
حاول أن يمسك دمعة فرح تترقرق في عينيه، لكنها غلبته، فأطلقها.

وعزم أن يذهب بها إلى صانع البراويز، ليضعها في برواز قيم مذهب الأضلاع.

ثم مد يده إلى مكتبة "عبد الرحمن"، أمسك المصحف، ولسانه ينطلق بالبسملة، نظر في الصفحة الأولى، وبدأ يقرأ فيه لأول مرة.







الفصل الثاني

مدرسة شبرا ملكان الابتدائية

في صباح أول يوم من العام الدراسي، تزاحم التلاميذ وأولياء الأمور في فناء المدرسة.

لم يأنس "محمد" بوجوه أصدقائه فقط، بل رأى الكثير من ضيوف جده، والذي اعتاد عليهم منذ فترة طويلة، وقفوا في فناء المدرسة، منهم من جاء مع ابنه، ومنهم من جاء مع حفيده.

لاحظ "محمد" أن أكثر الناس يرمقونه بعيونهم، وبعضهم يطيل النظر فيه وفي ملابسه.

ترتدي التلاميذ قميص بيج وبنطلون بني، ونادرا ما كان هناك من يرتدي ملابس أخرى قريبة من هذا الزي الرسمي للمدرسة.

أما "محمد" كان يتميز بكرافيت أحمر غامق، فوق قميص أبيض، وبنطلون أسود، وحذاء أسود، فجذب الأنظار إليه.

حتى أن بعضهم كان يتحسس الكرافيت مداعبا إياه.

تعجب "محمد" من نظرات الناس، وسأل جده: لماذا ينظرون لي هكذا يا جدي...ولماذا يتحسسون الكرافيت.؟

ابتسم جده وقال: لأنك أجمل ولد في المدرسة يا "محمد".

كان إجابات جده ترسخ فيه الثقة والاعتزاز بالنفس، حتى لا يشعر بالنقص عن زملائه.

وعندما سمع اسمه، دخل جده معه الفصل، مثل كل أولياء الأمور في أول يوم لأبنائهم في المدرسة.

سمع "محمد" عدداً من أصدقاء الشارع والحقل ينادونه: تعالى هنا يا "محمد".

يريد كل واحد من أصدقائه أن يجاوره الجلوس، فمنهم أول الصف، ومنهم فى المنتصف، وفي الأخر.

اختار جده مقعدا له في أول الصف، حتى يكون في مواجهة المدرس.

* * *

أراد الحاج "علي" أن يحافظ على أصدقاء "محمد"، ويضمن وجودهم حوله طوال ساعات المدرسة.

طلب من ابنته أن تحشو حقيبة "محمد" بعدد من السندوتشات، يزيد عن حاجته، غير الحلوى التي يحبها الأطفال.

وأمر "محمد" أن يوزع على أصدقائه مما معه، من الحلوى أو السندوتشات، وبهذا يجعل منه إنساناً معطاء، ويضمن استمرار أصدقائه حوله.

مرت الأيام الأولى بسلام، "محمد" سعيد بأوقاته بين زملائه في المدرسة، الكثير يريد أن يتقرب منه، ويكسب صداقته إلا "عمار الغريب".

"عمار" تلميذ ضخم، قمحي اللون، طويل بشكل ملحوظ، ملامحه وهيئته تنطق بالعدوانية والشراسة، يهابه التلاميذ.

دائماً ما يحاول عمار الاحتكاك بـ "محمد"، لكن أصدقاءه كانوا يحيطونه، يمنعونه من الوصول إليه.

باتت الشكوى من عمار تتردد كل يوم، مما أقلق الحاج "علي" وأسرته، وأخذت حجما كبيرا من تفكيره.

فقالت الحاجة أمينة": سوف أذهب وأشكوه لأمه.

تنهد الحاج "على" وقال: لا يا حاجة.. مثل هذا ليس لأمه تأثير عليه، فهي تعمل ليل نهار من أجل لقمة العيش، وذلك بعد وفاة زوجها، الذي ترك خلفه أسرة كبيرة العدد، غير أمه العجوز.

- والعمل يا حاج...

- كل مشكلة ولها حل يا حاجة.

قالت أمه "فاطمة": يجب أن يرى العين الحمراء ليبتعد عن مضايقة "محمد".

- لا يا "فاطمة".. مثل هذا لا يجب أن نستقوى عليه، فهو يتيم، غير أنه من عائلة ضعيفة.

سكت الحاج "علي"، كان يفكر في شيء.

لماذا لا يترك "محمد" يواجه مشكلته مع عمار..؟ ليعرف مدى قدرته في المواجهة والتكيف مع زملائه.

وبالفعل تركه يواجه الأمر بنفسه، دون أن يملي عليه أي خطوات، وجلس ينتظر ما يكون منه.

مر أكثر من أسبوع، لم يشكو "محمد" من مضايقات عمار، ولم يتحدث عنه في يومياته كعادته سابقا، فتعجبت الأسرة، ولم تعلق بشئ.

وذات صباح طلب "محمد" من والدته أن تصنع سندوتشا أخر غير الخمسة التي تضعها كل يوم في حقيبته، ويكون سندوتشا

أكبر من الخمسة، فسألته: لماذا يا "محمد".. أنت تأكل اثنين وتوزع الباقي على أصدقائك ؟!

- نعم.. والآن أصبح لي صديق جديد.

- من..؟

- إنه عمار يا أمي.

عرف الحاج على من "محمد"، أنه ذات يوم، بعد أن وزع السندوتشات على زملائه، لمح "عمار" ينظر إليه من بعيد، وشعر بانكسار في نفسه، فذهب إليه، وأخرج له سندوتشا من حقيبته.

رفض عمار في بادئ الأمر، ظنا منه أنه لم يتبق معه شيء ليأكله، لكن "محمد" طمأنه، وأخرج السندوتش الآخر، وأكلا معاً.

ومنذ هذا اللحظة، بدأ عمار يدخل في زمرة أصدقاء "محمد"، وأصبح من المقربين الذين ينالهم جزءا من الطعام الذي يوزعه كل يوم.

"عمار" لم يكن عدوانياً كما يظن التلاميذ، وأن ما يفعله هو خطف الطعام من التلاميذ، بدافع الجوع والحاجة إليه.

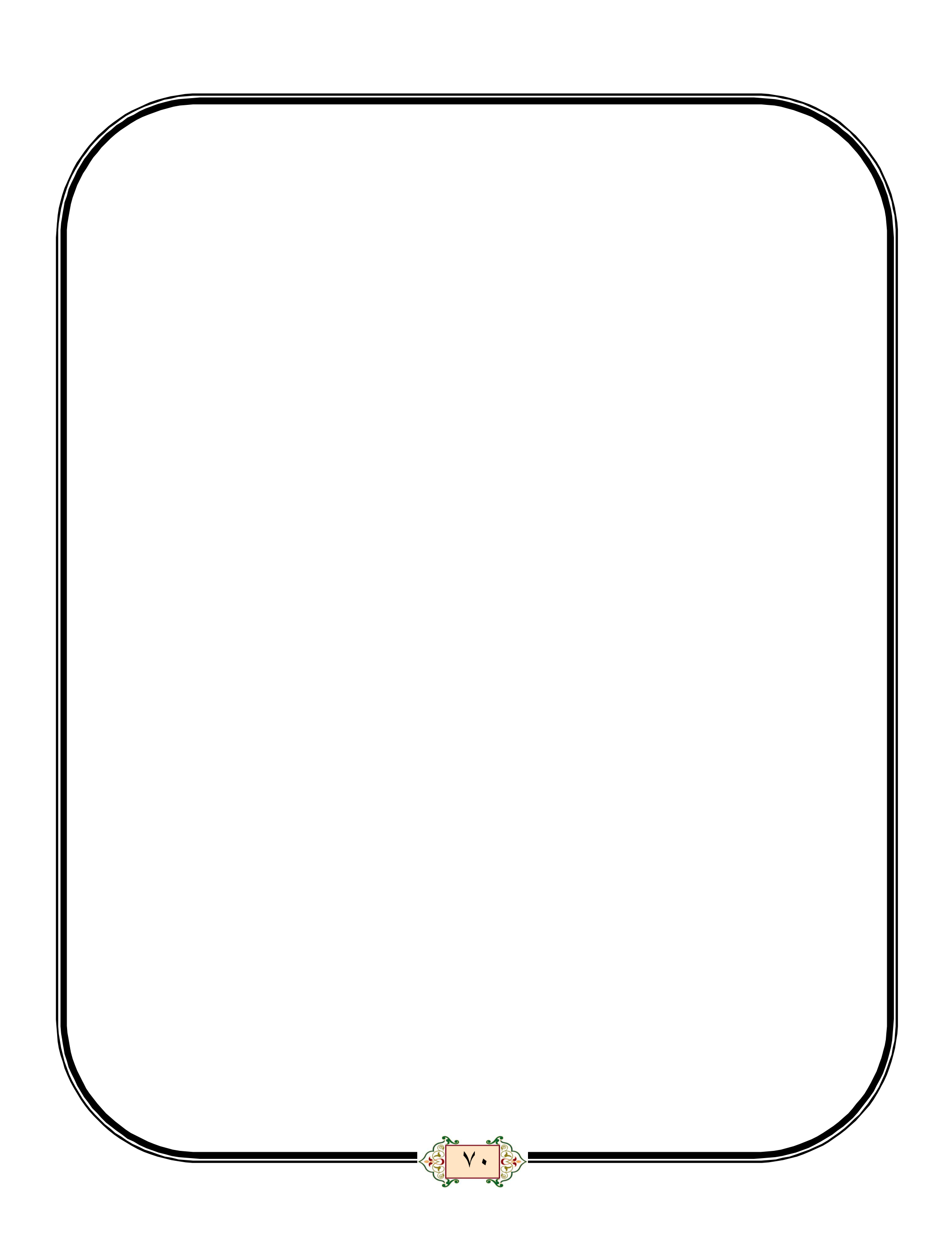
قام الحاج "علي" من جلسته، واحتضن "محمد" طويلاً، وشكر الله في سريرة نفسه، لأنه استطاع أن يجعل عمار من أصدقائه، دون أن يتلقى أي تعليمات منه.

ثم قال له : ما رأيك يا "محمد" لو دعوته على الغداء معنا اليوم .

هلل "محمد" فرحا، وقال: سوف يفرح صديقي كثيرا بهذه الدعوة.

ومنذ هذا اليوم، أصبح عمارا صديقاً حميماً لـ "محمد"، يسير خلفه كظله، يحميه من الزحام إذا تزاحم التلاميذ، حتى أطلق أحد المدرسين عبارة تداولت بين الجميع " إذا وجد "محمد" وجد عمار".





الأستاذ حمودة

في الشهر الثاني من بدء الدراسة، عاد "محمد" من المدرسة بوجه غاضب.

انزعج جده وكل من في المنزل، وسأله عما يغضبه، فأجاب قائلا: الأستاذ حمودة نقلني من الصف الأول إلى آخر الفصل، بجوار "سليمان".

- لماذا..؟.

- لا أعرف.

- ولا يهمك.. سوف أذهب معك للمدرسة غدا.

ردت زوجته الحاجة أمينة" قائلة: ألم يكن هو حمودة ابن "أم هاشم" خالة محجوب..؟

- نعم يا حاجة.

- لا تذهب أنت، وأترك الأمر لـ "عبد الرحمن"، لقد كان زميلاً له في المدرسة من قبل.

* * *

في حجرة المدرسين، قال الأستاذ حمودة: أعرف سبب زيارتك يا أستاذ "عبد الرحمن" .

ابتسم "عبد الرحمن" وقال: ليس غريبا عليك يا صديقي لمحاتك وقراءتك للناس .

سحابة من الغرور تظلل الأستاذ حمودة، رجع بظهره للخلف، وقال: ولذلك أرى أن توفر مجهودك مع "محمد" ابن أختك.

- لم يا أستاذ..؟

- "محمد" لا يستطيع مسايرة زملائه في التعليم

- والعمل..؟

- أنا لا أنكر أن الولد يجري ويتحرك مع زملائه، وأنه أفضل قليلاً ممن يعانون التأخر في النمو العقلي، ولكن تحصيله الدراسي ضعيف.

- إذن تحركاته هذه من علامات الاستعداد ليكون إنساناً سويّاً.

- لا.. الأفضل أن تذهب به إلى إحدى المدارس الفكرية، هناك يتعلم مهنة تناسبه.

لم يشعر الأستاذ حمودة أن كلماته أصابت قلب "عبد الرحمن" بألم شديد، لكنه ابتسم وقال: أرجوك يا أستاذ حمودة، اعتبره أحد أولادك.

قاطعه الأستاذ حمودة وقال: أنت تحاول خلق شيء من العدم.

أدرك "عبد الرحمن" أنه لا فائدة من الحديث مع الأستاذ حمودة.

نهض واقفاً، وقال: بحق صداقتنا القديمة، وبحق القرابة التي بينك وبين محجوب والده، أرجو منك أن تعيد "محمد" إلى مقعده في الصف الأول، وعامله مثل أي تلميذ، حتى لا يشعر بأنه مختلف عن زملائه.

- هذا أمر بسيط يا صديقي، ولكن ما الفائدة..؟

- دع الأمر لله.

كان قلب "عبد الرحمن" يعتصر ألما، وقرر أن يبذل مجهوداً أكثر مع "محمد"، ويجعل منه إنسان مسايراً لزملائه، أو أقل منهم درجة.

أصبح الأمر تحديا بالنسبة لـ "عبد الرحمن"، تحدي العوائق والظروف الصعبة التي عليها "محمد" ، رغم ضيق الوقت لديه.

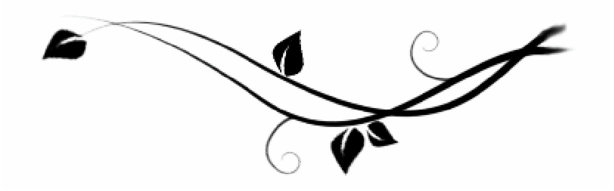
اضطر أن يقتطع من وقت عمله في التجارة ساعتين كله يوم، وأحيانا يقطع اليوم كله ليجلس فيه مع "محمد"، يستذكر دروسه، ويلاعبه، ويصطحبه في رحلات قصيرة إلى المدينة.

أما الحاج "علي"، خصص لنفسه عددا من الكراسات مثل "محمد"، وراح يذاكر الدروس التي في كتب "محمد"، ويكتب الواجب مثله، كأنه يتهيأ لامتحان آخر العام.

يتسابق معه في المذاكرة وتكرار كتابة الواجب، في غياب "عبدالرحمن" عن المنزل، حتى يظل "محمد" على صلة بالكتابة والقراءة أكثر الوقت.

ورغم أن الأستاذ حمودة أعاد "محمد" إلى الصف الأول، كما طلب منه "عبد الرحمن"، فلم يسأل "محمد" ولو مرة أي سؤال، أو يطلب منه كراسة الواجب، أو رؤية شيء من أشيائه، كأن "محمد" لا جود له في الفصل.

ولذلك... لم يعرف أن "محمد" تقدم تقدما ملموسا في تحصيله الدراسي، وأنه اقترب كثيرا من الأسوياء.



زيارة وفد للمدرسة

بعد أيام، جاء وفد من مديرية التربية والتعليم لزيارة المدرسة، فأسرع الأستاذ حمودة إلى الفصل، وأمر "محمد" أن يعود للصف الأخير بجوار سليمان، حتى لاتقع عين الوفد عليه، رغم أن "محمد" يرتدي ملابس مميزة عن زملائه، أهم ما يميزه "كرافت" بيج اللون، على قميص بيج أيضا، على بنطلون أسود.

ظهر غضب شديد على وجه "محمد"، ثم قال: لن أنتقل.

اغتاظ الأستاذ "حمودة" لهذه الجرأة .

ارتفع صوته قائلاً: قلت اذهب إلى الصف الأخير .

- أنا لن أنتقل.

اشتد غيظه، ومد يده، اقتلع "محمد" من مقعده بالقوة، وجره من ملابسه إلى الصف الأخير بجوار سليمان.

كاد "محمد" أن يقع على وجهه، لكن "عمار" مد يده وهو جالس مكانه، وأنقذه من الوقوع.

لاحظ كبير الزائرين أن هناك شيئاً على وجوه التلاميذ، وكذلك الأستاذ حمودة، فدار سريعا بنظراته في التلاميذ، فرأى "محمد" في آخر الفصل، مازال يعتدل من ملابسه في غضب شديد.

أشار كبير الزوار إلى المقعد الأخير بيده، حيث يجلس "محمد" وزميله"سليمان"، ثم سأل الأستاذ "حمودة".

- ما حكايتهما.؟

- حالات ميئوس منها، خسارة فيهم التعليم .

سار كبير الزوار بين المقاعد، حتي وصل إلي " "محمد" و"سليمان.

سأل "سليمان عن اسمه، فلم يسمع غير حروف لا يستطيع تركيبها.

ثم سأل "محمد": ما اسمك ؟

وقف "محمد" وأجاب: "محمد" محجوب عز الدين.

إجابة واضحة الحروف، لا تأتي إلا من تلميذ مجتهد، مما أثار اهتمام كبير الزوار، فسأله: أرني حقيبتك .

فتح الحقيبة، تصفح محتوياتها، قطب حاجبيه، كلما مر علي صفحة من صفحات كراسته.

تنقل بنظراته بين "محمد" والأستاذ"حمودة".

ثم سأل "محمد": تعرف تكتب اسمك على السبورة

- نعم .

خرج "محمد"، وكتب أسمه ثلاثياً على السبورة بخط متناسق، أذهل الأستاذ حمودة ومدير المدرسة، فكلاهما لم يتوقع منه هذا الخط.

ثم سأله الزائر: هل تعرف الجهات الأربعة..؟

- نعم.. شرق وغرب وشمال وجنوب.

- هل تعرف أن تكتبهم .

- نعم.

كتب "محمد" الجهات الأربعة، وسط ذهول أشد من الحاضرين.

ثم قام الزائر بإملائه بعض الكلمات من الكراسة، فكتبها "محمد" بكل سهولة.

نظر الزائر إلى الأستاذ "حمودة"، وطلب منه كراسة درجات التلاميذ، فمر على درجات "محمد"، ثم رفع رأسه وقال له: لماذا قلت لي أنه ميئوس منه في التعليم ؟ .. ولماذا لم تقم بتصحيح

كراسته؟ ولماذا تعطيه أقل الدرجات رغم أن مستواه ليس بأقل من مستوى التلميذ العادي..؟

- هذا تقييمي له منذ أن رأيته.

خرج الوفد الزائر من الفصل غاضبا، مما أغضب الأستاذ "حمودة"، الذي نظر إلى "محمد" نظرات بين التعجب والسخط، ثم قال في نفسه كأنه يحدثه: أعرف أنك غبي، ولكن.. كيف أوصلك خالك "عبد الرحمن" إلى هذا المستوى الغير متوقع.؟

ثم تذكر الأستاذة حمودة التقرير الذي سوف يكتبه عنه الوفد الزائر، فتمنى لو أن يوسع " محمد" ضربا بالعصا، لأنه سوف يكون السبب في تأخير ترقية كانت في الطريق.

لكنه يعرف أن خاله "عبد الرحمن" لن يترك الأمر يمر بسلام إذا عاقب "محمد"، وأنه سوف يشتكي، ويتحول الأستاذ "حمودة" للشؤن القانونية، وربما يتم نقله إلى مكان بعيد عن بلدته.

كتم الأستاذ حمودة غيظه، وجلس على مقعده دون أن يقول شيئا، حتى دق جرس الفسحة.

***

اجتاز "محمد" العام الدراسي الأول، رغم أنه لم يكن مع زمرة الأوائل المتفوقين، إلا أن نجاحه بأى نتيجة كان بابا لدخول السعادة إلى الأسرة .

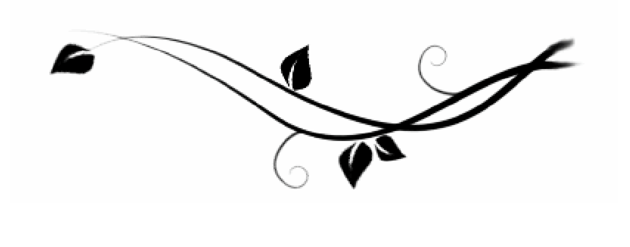
أقام جده وليمة بسيطة، ودعا إليها بعض الأقارب والجيران، ابتهاجا بهذه المناسبة .

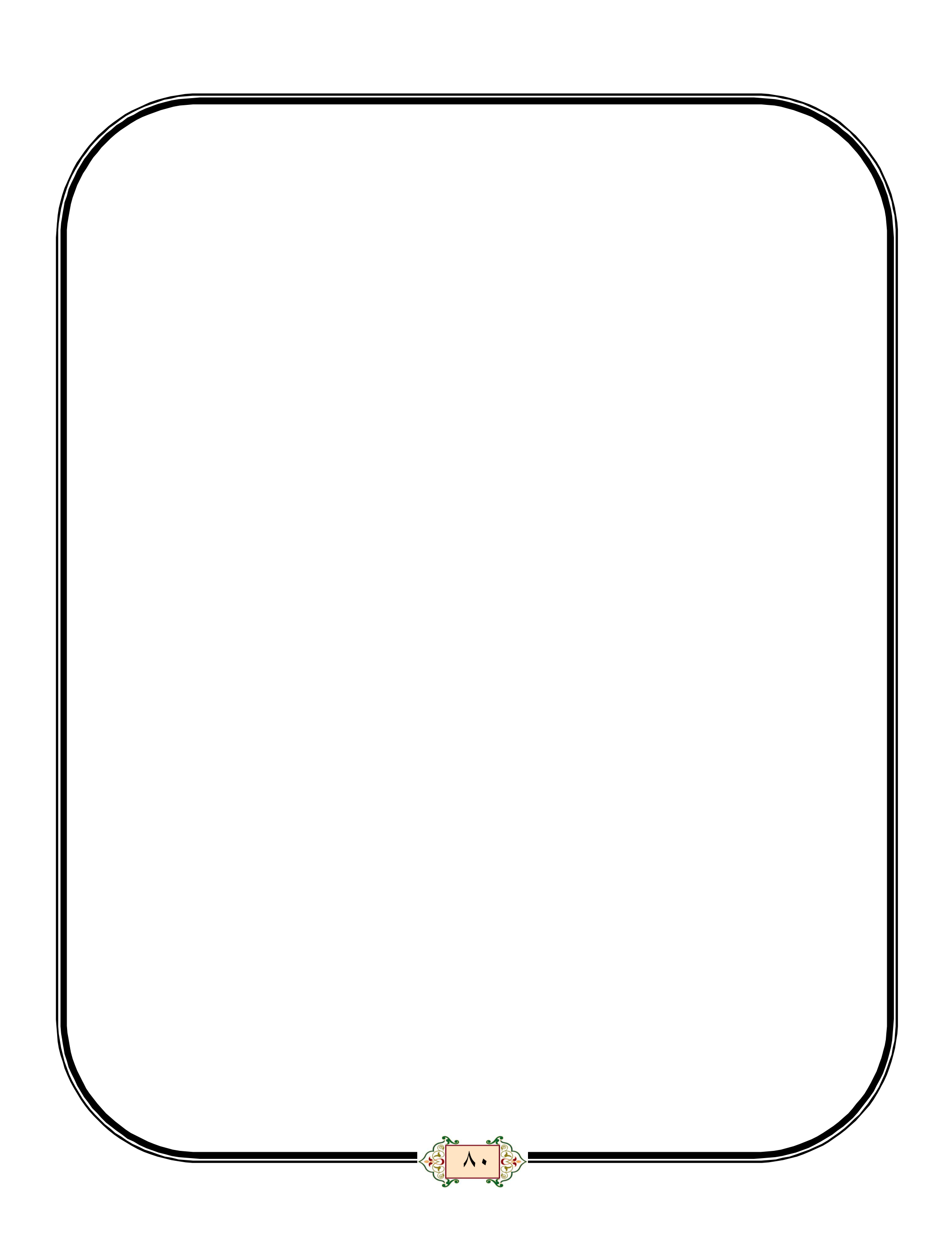
كما طلب من "محمد" أن يدعو أصدقاء .

امتلأ البيت بهجة وسرورا، تنطلق فيه الزغاريد والتهاني، كأن "محمد" حصل على شهادة الدكتوراه .

كان جده ينتظر تلك المناسبة، لا يكل أو يمل من الدعاء بها كل صلاة، يريد من خلالها أن يرسل رسالة إلى "محجوب" والد "محمد"، يبلغها فيها أن الولد لا يقل شيئاً عن الأطفال الأسوياء.

ولذلك.. دعا "جابر" إلى هذه الوليمة، فهو يعرف أن "جابر سوف يطير بالخبر إلي "محجوب"، لتسري في نفسه الحسرة والندم لأنه طلق ابنته.





عام دراسي جديد

امتلأ الفصل بالضجيج، الكل يريد أن يكون "محمد" بجواره.

جلس في أول الفصل، ثم دخل الأستاذ حمودة، قامت التلاميذ تحية له كما تعلموا في العام الماضي.

لم ينطق بكلمة، دار بعينه في الصفوف الأخيرة، يبحث عن "محمد"، لم يجده هناك، ورأى تلميذا آخر.

ثم جال بنظراته في الصف الأول، فوجده بنظرات حادة، كان متحفزا لما يكون من الأستاذ حمودة.

فبادله الأستاذ بنظرة حادة، تحمل كل الحقد والكراهية، لم ينس أنه كان سببا فى تأخير ترقيته، غير الجزاء بالخصم من مرتبه.

قال وهو يكتم غيظه : من قال لك اجلس هنا ؟

رد "محمد" في جرأة: جدي قال لي أقعد في المقعد الأول، وكذلك بابا "عبد الرحمن".

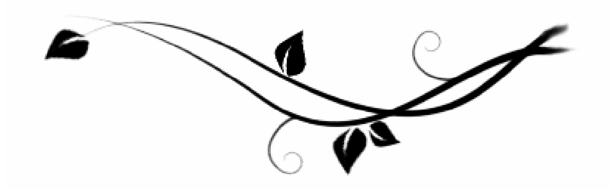
لم يعلق الأستاذ "حمودة" على كلمة بابا، ولكنه قال: اجلس أيها المتخلف.

لم تمر كلمة متخلف على جده بسلام، لقد اشتعل غضبا، وقرر أن يذهب غدا إلى المدرسة، ليتخذ المدير إجراء ضد هذا المدرس المتعنت.

لكن "عبد الرحمن" طلب من والده أن يترك الأمر له، فهو يعرف كيف ينهي هذه المشكلة.

وفي اليوم التالي، التقي "عبد الرحمن" بمدير المدرسة، وقص عليه الأمر.

أدرك مدير المدرسة أن وجود الأستاذ حمودة على هذا الفصل، سوف يجلب له القلق والمشاكل، ورأى أن يكلفه بالتدريس لفصل آخر.



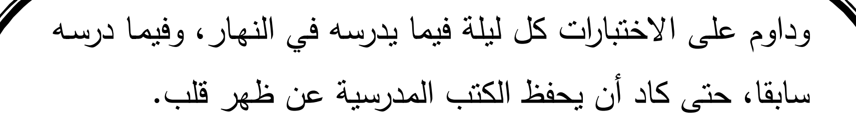
أفضل سنوات المدرسة

تقدم محمد إلى أعلى المستويات، التي يمكن أن يكون عليها تلميذ في مثل حالته، حتى أن المدرسين الذين رفضوه بالأمس، تنافسوا عليه ليضموه إلى صفوف التلاميذ في دروسهم الخصوصية، فذهب عند أحدهم، وأصبح قريبا جدا للأسوياء.

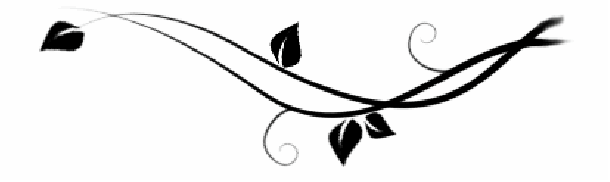
ولم لا..؟ وقد ساق الله إليه يد حانية، تتمثل الأستاذ مختار، تولي الفصل بعد الأستاذ حمودة.

الأستاذ مختار يؤمن أن المعلم رسول علم، ويجب عليه أن يؤدي هذه الرسالة التي حباه بها الله .

غير أن جده الحاج "علي" مازال يكرر معه الواجب المدرسي في النهار، وكذلك "عبد الرحمن"، ضاعف ساعات الجلوس معه،



وداوم على الاختبارات كل ليلة فيما يدرسه في النهار، وفيما درسه سابقا، حتى كاد أن يحفظ الكتب المدرسية عن ظهر قلب.



عواصف في الأفق

أريـد أن أذهـب وحـدي اليـوم.. لقـد أصـبحت رجـلاً كبيـراً وقويـاً أيضاً.

هكذا قال "محمد" وهو يرتدي بدلته الجديدة، في صباح أول يوم دراسي من العام السادس الابتدائي، بدلته التي انتقاها بنفسه، ذات اللون الزيتوني، والكرافيت الأخضر الخفيف، وقميص مناسب بين اللونين.

ضـربت أمـه "فاطمـة" علـى صـدرها وقالـت وهـي تـشهق: يعنـى استغنيت عن جدك يا "محمد"..؟

- لا .. لا.. جدي حبيبي ..لكن أنا أصبحت كبيراً .

جاء جده بضحكات إعجاب به وهو جالس على الكنبة، ثم قال: وهل تستطيع أن تزاحم وحدك، وتجلس في المقعد الأمامي إن لم أحضر معك..؟

هز "محمد" رأسه في ثقة وإعجاب بنفسه، وقال: مكاني محجوز، ولا يستطيع أحد الجلوس فيه غيري.

جاء صرير باب حجرة جدته الحاجة أمينة"، أعقبه ضحكة فيها حشرجة مميزة، ثم قالت: ما هذه الثقة يا أستاذ "محمد"..؟

- طبعا يا جدتي.

ضحك الجميع، وكذلك "عبد الرحمن" الذي خرج من حجرته، ونظر في ساعة يده، وقال في لهجة مسرعة: هيا اصطحبك في طريقي.

- بشرط ألا تدخلي معي المدرسة.

وحين ظهر من بعيد، هرول إليه عدد كبير من التلاميذ، التفوا حوله، لم يستطع "عبدالرحمن" أن يقبله من شدة الزحام، فلوح له بيده، وسار إلى عمله.

سار وسط زملائه، خلفه عمار، يحدثون ضجيجا عاليا بأسئلتهم وإعجابهم ببدلته الجميلة.

" الأجازة كانت رائعة.. كم لعبنا على أرجوحتك الجميلة.. وتسابقنا على رأس الحقل وسط الزروع.. وركبنا الحمار حمور، وأطعمنا الجاموسة نوسة البرسيم الأخضر..كم هي رائعة هذه البدلة يا "محمد"..".

ثم استغرقوا في الضحك، حينما ذكر أحدهم وقال: أتذكرون يوم أن نهق الحمار بالقرب من أذن عمار ؟

توقف الجميع عن المسير، واستغرقوا في الضحك كثيرا، حينما ذكرهم أحدهم بيوم من أيام الأجازة، كانوا يلعبون فيه على رأس الحقل، وعمار يسحب الحمار "حمور"، يريد أن يسير به مسافة صغيرة، لكن الحمار أطلق نهيقا عاليا بالقرب من أذن عمار، مما أحدث الخوف في قلبه، فترك الحمار وفر هارباً.

في فناء المدرسة، دار "محمد" بنظراته في كل اتجاه، لعله يرى الأستاذ مختار، ثم اقترب من حجرة المدرسين، انقبض قلبه، لم يجد اليد الحانية بين المدرسين.

لم يعرف أنه تم ترقيته، وأنه انتقل إلى مدرسة أخرى.

ثم اشتد قلبه انقباضا، حين رأى الأستاذ حمودة يخرج من حجرة مدير المدرسة، فالتقت النظرات، ظل يتبادلانها لحظة.

في هذه اللحظة، تذكر الأستاذ حمودة أن هذا الولد كان سبباً في تأخير ترقيته.

وكذلك "محمد"، تذكر أن الأستاذ حمودة قال عنه متخلف.

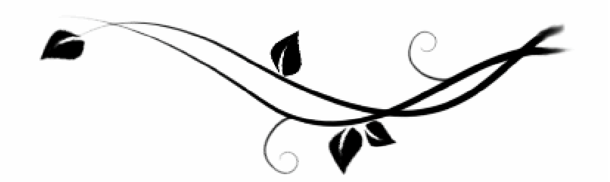
وسرعان ما انصرف "محمد" مسرعا، يخبئ نفسه وسط أصدقائه.

عاد من المدرسة مهموما، يريد أن يرمي نفسه في أحضان جده، يشتكي له غياب الأستاذ مختار، هذا الرجل الطيب صاحب اليد الحانية.

لكن.. "محمد" لم يقل شيئاً، لقد نسى أحداث المدرسة كلها، لقد رأى ازدحاماً شديداً أمام المنزل، شيء غريب، لم يرتح له.

حوقلة هنا..ودعاء بالرحمة هناك.

لقد مات جده... مات النهر الذي كان يستمد منه الحياة.



عام من الحزن

سكن كل شئ في المنزل، وسكن "محمد" في حجرته، لم يخرج منها إلا قليلا، رفض الحياة بعد وفاة جده، ورفض الذهاب إلى المدرسة، فرسب هذا العام.

لم يكن من "عبد الرحمن" إلا أن يستقبل الأمر بهدوء، وعليه أن يبدأ مع "محمد" من جديد.

ولم يعرف أن هناك مفاجأة أخرى..مفاجأة أودت بـ"عبد الرحمن" في وادي من اليأس، شعر بانهزام في نفسه، تمنى لو أنه لم يعش هذه اللحظة.

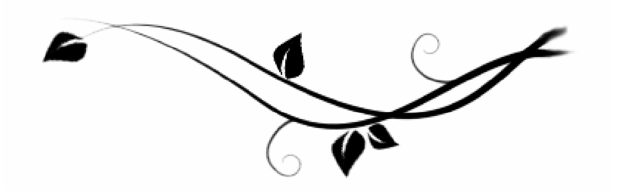
يا إلهي.. لقد سقط كل ما تعلمه من عقله، سقطت كل المعلومات والكلمات، حتى ما تعلمه من جده ومن "عبد الرحمن" قبل اليوم، وسقطت الحروف من لسانه، لم يعد ينطق الكلمات كما تعلمها.

غير أن وزنه بدأ في ازدياد بشكل ملحوظ، رغم أنه يأكل أقل بكثير من وجباته العادية، وأحيانا يصوم يوما أو يومين إلا عن الماء .

كانت الساعة العاشرة ليلا، شعر "عبد الرحمن" باختناق شديد، خرج من المنزل، سار على الطريق الزراعي وسط الحقول، سار بلا هدف، لم يعرف أين تأخذه قدماه.

فجأة.. رأى نفسه أمام المقابر، شعر أنه في حاجة للبوح والبكاء، فجلس على قبر والده، بكى طويلاً ، وطلب منه الغفران، لأنه لم يجد الوقت ليجلس مع "محمد".

مرت ساعة، بكى فيها ما شاء له الله أن يبكي، شعر كأنه فرغ من كل همومه، وكأن نفسه قد اعتدلت من انهزامها، وتخلصت من يأسها.



من البداية

رأى "عبد الرحمن" أن يصطحب "محمد" في سفره، طالما أنه في أجازته الصيفية، ليخرجه من سجن الصالة الذي وضع نفسه فيه، وسجن الوحدة التي يشعر بها.

وبذلك يستطيع الحديث معه أكثر الوقت، ويبدأ معه استرجاع ما وقع من ذاكرته.

استجاب "محمد" سريعاً لما يتلقاه من "عبد الرحمن"، بمساعدة العم بركات، الذي كان يدخل كثيراً في الحوار بينهما.

لم تقع المعلومات من ذاكرة "محمد"، لكنها كانت راقدة في الأعماق، تحتاج إلى غواص ماهر ليستخرجها من جديد.

خصص "عبد الرحمن" يوما وسط الأسبوع، غير يوم الجمعة، يصطحب فيه "محمد" إلى قبر جده في العصر، يقرأ له ما تيسر

من القرآن، يستحضر روح جده، يذكره بما كان يقول، وبما كان يفعل.

ثم يصطحبه إلى أماكن لم يعتد زيارتها من قبل، مثل الحدائق والمنتزهات العامة والملاهي في المدينة، والمسرحيات التي تقام في قصور الثقافة، ومركز الشباب بالقرية.

"عبد الرحمن" كان يتقن لعبة تنس الطاولة، قبل أن تأخذه الحياة بمشاكلها، وقبل أن يعمل بالتجارة، فهي لعبة تعتمد على التركيز والحركة وسرعة البديهة.

في مركز الشباب، رأى أجيالاً أصغر منه بكثير، شاركهم اللعب بعد أن استأذنهم، ثم استدعى عدداً من الأصدقاء القدامى والذين كان لهم خبرة كبيرة عن هذه اللعبة.

فرح الأصدقاء بعودتهم إلى اللعب، وخصصوا ساعة كل ليلة، يلعبون فيها معا، درءا للكسل وهموم الحياة، وعودة للنشاط الجسدي والعقلي مرة أخرى.

كان"محمد" سعيداً برؤية الكرة، وهي حائرة بين اللاعبين، كل منهما يضربها بمضرب في يده، بطريقة معينة، لتتخطى الكرة شبكة في المنتصف، بحيث تصل إلى المنطقة الأخرى.

اكتفى "محمد" بالمشاهدة، والسعي خلف الكرة حين تقع على الأرض، فيناولها لأي منهم، حتى عرف متى يكون الخطأ.. ومتى يكون الصواب..؟. وكيف تحسب النقطة، وعلى من ولمن..؟

أشركه "عبد الرحمن" طرفاً ثالثاً في اللعب، وجعله حَكَماً بين اللاعبين، يعد النقاط هنا وهنا، ثم طلب "محمد" أن يشاركهم اللعب.

هذا ما أراده "عبد الرحمن"، ولذلك خصص له ساعة أخرى كل ليلة، يلعب فيها معه، ويعلمه كيف يمسك المضرب ويرد الكره، حتى أتقن "محمد" الكثير من فنون اللعبة.

لم يكتف "محمد" باللعب ساعة كل ليلة، وطلب من "عبد الرحمن" أن يلعب وقتا آخر بالنهار، مستغنيا عن السفر معه.

اصطنع "عبد الرحمن" التردد والتخوف، وقال: أخشى عليك من الأولاد في النادي .

- لا تخف يا أبي، أنا قوي وكبير، وأستطيع مواجهة من يتعرض لي.

- في النادي أولاد أشقياء، وأقوى منك يا "محمد".

- هأ هأ هأ.. لا تنسى صديقي عمار، لم يفارقني أبداً، غير أنني وعدته أن أعلمه لعبة تنس الطاولة.

خضع "عبد الرحمن" لما يريد "محمد"، بشرط أن يقسم وقته بين الجلوس أمام الشيخ "عبد الفتاح " لحفظ القرآن الكريم من جديد، وبين المذاكرة وكتابة الواجب الذي يكلفه به، والذهاب إلى الحقل عدد من الساعات بدلاً من والدته، ليباشر الحمار والجاموسة.

أصبح "محمد" أكثر تركيزاً، وأكثر نشاطاً، وأسرع بداهة عن ذي قبل، وأصبح وزنه متناسبا مع عمره، بفضل ممارسة لعبة تنس الطاولة، والتي أصبح فيها منافساً قوياً لمن سبقوه في هذه اللعبة.

وليس هذا فحسب، لقد قام بتعليم صديقه عمار هذه اللعبة، وأصبحا يتنافسان فيها، كما أصبح له أصدقاء جدد في النادي، ينتظرون مجيئه كل عصر.

وفي الليل، يجلس مع "عبد الرحمن"، يتلو عليه ما حفظه من القرآن اليوم، ويذاكران معا، ويحكي له عن ساعات يومه، وكيف هزم أصدقاءه في اللعب..؟. وكم كانت النتيجة..؟

وبدأ عام دراسي جديد، لكنه لم يكن جديدا على "محمد"، لأنه يعيد المرحلة الأخيرة من الابتدائية.

أما الجديد في هذا العام، هي وجوه تلاميذ معه في الفصل، فلم يعرف منهم الكثير، ولم يكن منهم أصدقاء وحاشية مثل السنوات الماضية.

الشيء الوحيد الذي يألفه في الفصل، هو صديقه عمار، فهو الآخر يعيد السنة الأخيرة، يبدو أنه عز عليه أن يرسب صديقه وحده، فآثر أن يعيد معه العام.

والغريب... أن "محمد" لم يتلهف على الجلوس في الصف الأول كعادته، لقد اتخذ المقعد الأخير بنفسه، بجوار صديقه عمار.

سرعان ما أصبح لـ "محمد" حاشية، تآلف مع أصدقائه الجدد، لديه رغبة قوية في اللحاق بأصدقائه القدامى، الذين سبقوه إلى المرحلة الإعدادية، ورغبة أقوى في النجاح ليثبت للجميع أنه طفل ذكي، لا يقل عن من سبقوه في شيء.

هذا ما زرعه فيه "عبد الرحمن"، وساعده الأستاذ "مختار"، في المضي إلى تحقيق هذه الرغبات، حين كلفة بقراءة القرآن في طابور صباح كل سبت، وحين يسأله أسئلة خفيفة، ثم يصفق له.

فاضت أعماق "محمد" بكل ما كان يرسب في قاعها، تمثلت روح جده أمام عينيه من جديد، استعاد ما تعلمه طوال السنوات الماضية، واقترب أكثر من المستوى المطلوب، والذي يؤهله لاجتياز المرحلة الابتدائية.

***

عند مغرب ذات يوم، وقبل الامتحان بأيام، كان "محمد" جالساً على مكتب في حجرة "عبد الرحمن"، يكتب واجبه المدرسي، فجاء جرس الباب برنين خفيف، فتحت "فاطمة" الباب، ودخل الطارق حجرة الجلوس حيث يجلس "عبد الرحمن".

ثم جاء الجرس برنين آخر، ورجال آخرين.

تكرر الرنين، وتوافدت رجال العائلة فرادى وجماعات، حتى اكتظت الحجرة بهم.

تعجب "محمد".. يا الله.. منذ أن توفي جده، لم يطرق الباب طارق إلا نادرا جدا ، لم يأت هذا الجمع الكبير من العائلة.. ترى ماذا حدث.. أو ماذا سيحدث..؟

ترك "محمد" المكتب، واقترب ناحية الباب، حاول أن يتصنت على الحوار الذي يدور بينهم.

لكنه عاد مسرعاً قبل أن يسمع شيئاً، استيقظ صوت جده في أعماقه، أنبه وزجره في هدوء، فكيف لرجل أن يفعل فعل الشياطين..؟

هكذا كان يقول له جده، ولذلك عاد يؤنب نفسه، وجلس على المكتب مرة أخرى، يردد بصوت مسموع " آسف يا جدي.. آسف يا جدي..".

لكن السؤال هيمن على عقله..لماذا اجتمع رجال العائلة هذه الليلة..؟. منذ أن توفي جده لم يرهم إلا فرادى أحياناً، وأحياناً أخرى جماعات متفرقة، فلماذا هذا التجمع المفاجئ..؟ لابد أن هناك أمراً ما.

وبينما هو في أسئلته وحيرته، فإذا بصوت كبير العائلة يأتي قائلا: عند الفجر سوف نحضر ومعنا العربة يا "عبد الرحمن".

- وأنا في انتظاركم إن شاء الله.

- عليك أن تضع العلف الجيد للجاموسة والحمار، حتى نبيعهما بأعلى ثمن.

اتسعت عين "محمد"، وفغر فاهه من هول المفاجأة، ثم نظر إلى صورة جده المعلقة على الحائط، لم يصدق ما سمعه.

"هل حقا سوف يبيعون" حمور" و"نوسة" غدا في السوق..؟"

قام من مكانه، اقترب من صورة جده المعلقة على الحائط، حملق فيها جيدا، كأنه يحثه على الثورة، يستجير به من فعل هؤلاء، يريده أن يتكلم، أن يقول شيئا.

ليته يخرج من الإطار المذهب، ويملأ المنزل باللوم والتوبيخ، لأنهم يريدون أن يفرطوا في شيء يحبه، يفرطوا في آخر الأحياء التي تذكرهم به، وأبطال الحكايات التي كان يحكيها له..

لكن جده لم يفعل شيئاً، لم يقل شيئاً ، وظل ساكنا في بروازه.

صرخ صارخ في أعماق "محمد".. " لماذا تسكت يا جدي.. قل لهم لا يبيعوا حكاياتك.. لا يبيعوا أصدقائي.. قل لهم أنني أحب حمور ونوسة".

لكنه رجع مخذولا إلى مقعده، أول مرة لم يقل جده شيئا، وأول مرة لم يجره حين يستجير من شيء يقلقه.

جلس ، صامتاً، ومازالت تتعلق نظراته بالصورة على الحائط.

دخل "عبد الرحمن" عليه الحجرة، بعد انصراف الضيوف، والفرحة في عينيه، كان يشعر بأن الحمار والجاموسة عبئا على "فاطمة"، وغدا سوف يذهب هذا العبئ، وتتفرغ أخته لخدمة والدتها والمنزل.

سأل "محمد" دون أن ينظر إليه: هل انتهيت من الواجب يا عسل ..؟

لم يسمع إجابة من "محمد"، فالتفت إليه، رآه ينظر إلى صورة جده، وعيناه تمسك عن دمعة تحاول الإفلات من محاجرها.

اضطرب "عبد الرحمن"، وأمسك برأس "محمد" في لهفة: ما بك يا حبيبي..؟

نظر "محمد" إليه في صمت، فجن جنونه، فهو لم يعرف سببا لهذا الحزن وذاك الصمت، فكرر سؤاله : قل.. ما بك..؟

- لماذا تريد أن تبيع "حمور ونوسة"..؟

أغمض "عبد الرحمن" عينيه، وجرى بيده على شعره، ثم تنهد طويلا، وشكر الله في نفسه، ظنا منه أن الأمر هين، وقال : حمور ونوسة في حاجة إلى من يرعاهما، وأنت مشغول بدراستك، وأنا أيضا مشغول في عملي، وأمك لا تستطيع رعايتهما بجوار عمل المنزل.

رغم أن "عبد الرحمن" يعرف ارتباط "محمد" بأصدقائه "حمور ونوسة"، إلا أنه لم يدرك الجرح الكبير الذي سوف يتركه في نفس "محمد"، فهو يبيع أبطال حكايات جده التي كانت تسعده، والتي أصبحت جزءا من حياته واختصاصاته.

فكم تولي تقديم البرسيم والحشائش لهما، وقام بسقيهما، والاستحمام مع نوسة في الترعة، وكم أسعده حمور حين كان يركبه، يتسابق به مع الأصدقاء وسط الحقول.

ربت على رأس "محمد"، وقال: تعال نكمل الواجب.

- لا.

تعجب "عبد الرحمن"، هذه أول مرة يرفض كتابة الواجب، والأغرب أنه رفض دون خجل، وبنبرة عالية بعض الشيء، مما أقلق "عبد الرحمن"، وأصابه بالذهول.

لم يجد إلا الكلمة التي تجعل "محمد" ينصاع لأي أمر، مهما كانت صعوبته وهي "إذا كنت تحب جدك" .

ابتسم "عبد الرحمن" ابتسامة الواثق من نفسه، وقال : إذا كنت تحب جدك أكتب الواجب.

نظر "محمد" إليه ثم قال: أنا أحب جدي.. هل أنت تحبه..؟

هكذا رد "محمد" بهذه الكلمات، قالها وقام من مقعده، تاركا "عبد الرحمن" في دهشته.

ما هذا.. "محمد" كان يخضع عندما يسمع هذه الكلمات، لماذا لا يخضع هذه المرة..؟

ماذا يفعل "عبد الرحمن" الآن..؟

هو حائر.. فهل يرضيه ويعود عن بيع الجاموسة والحمار..؟ وماذا يقول للعائلة حين يأتون في الفجر..؟

لقد اتفق معهم، ومن الصعب أن يعود عن اتفاقه مع الرجال.

جلس "عبد الرحمن" يفكر بعض الوقت، ثم قام إلى حجرة "محمد"، فوجده يجلس على الفراش، يتأمل صورة جده، مازال يستجير به، مازال ينتظر ثورته ورفضه بيع الجاموسة والحمار.

حاول أن يتحدث معه، لكن "محمد" رفض أي حديث، ورفض أن يسمع أي كلمات.

فانسحب "عبد الرحمن" من أمامه، ظنا منه أنه سوف ينسي الأمر فيما بعد.

***

عند أذان الفجر، بدأت "فاطمة" رواحها ومجيئها في المنزل، توضأت وأيقظت أمها لتصلي الفجر معها، ثم اتجهت إلى الباب، في طريقها إلى الدور الأرضي، لتضع العلف للجاموسة والحمار.

لكنها توقفت قبل أن تفتح باب الدور الثاني، عندما رأت باب حجرة "محمد" مفتوحاً، فاتجهت إليه مسرعة، هذه أول مرة تراه مفتوحا في هذا الوقت.

دخلت الحجرة، وأشعلت المصباح، ثم شهقت، وضربت على صدرها: يا مصيبتي.. "محمد" فين... يا مصيبتي .

ماذا بك يا "فاطمة"..؟

هكذا قالت أمها الحاجة أمينة"، وهي مازالت في مصلاها.

ردت "فاطمة" قائلة في لهفة: "محمد" غير موجود في سريره يا أمي.

شهقت الحاجة أمينة"، ونهضت مسرعة رغم أمراض الشيخوخة التي تمكنت منها، وسألتها بصوت عال: انظرى في باقي الحجرات يا "فاطمة".

- لقد فعلت يا أمي..لم أجده في أي مكان.

حدث شيء من الهرج والمرج في الدار، فاستيقظ "عبد الرحمن" هو الآخر، ودار سريعاً في الحجرات كالمجنون، ثم فتح باب الدور الثاني، وخرج مسرعاً.

ظن "عبد الرحمن" أن "محمداً " ذهب إلى المقابر في هذا الوقت.

تلك هى عادة من عادات "محمد"، يذهب إلى المقابر ويجلس على قبر جده، كلما وقع مكروه، أو ألم من شيء، أو ضعف أمام أي موقف.

هناك يشتكي لجده، يحكي كل ما في نفسه وما يحزنه، يستحضر في هذه الجلسة كلمات جده وتعاليمه، يتذكر كل ما

كان يقال له، ثم يعود إلى المنزل، وقد نفض عن نفسه كل الهموم.

وعندما أصبح "عبد الرحمن" في منتصف درجات السلم، تتهد الصعداء، لقد رأى ضوءا يخرج من الزريبة، وصوت "محمد" يتحدث قائلا: أنا أحبك يا حمور، وأنت يا نوسة.. أحبكما جدا".

اطمأن "عبد الرحمن"، وعرف أن "محمداً" لم يذهب إلى المقابر في هذا الوقت.

لكن... كيف يقنع "محمداً" أن بيع حمور ونوسة أمر حتمي..؟

دفع باب الزريبة في هدوء، وجد "محمداً" جالساً بين "حمور ونوسة" ، تاركا رأس "حمور" على كتفه الأيمن، و"نوسة" تلحس وجهه من الجهة اليسري، وهو يمسح على رأس هذا مرة، ورأس هذه أخرى.

لمسات يده، فيها المعنى الحقيقي للحميمة التي بينهما، فيها كل كلمات الوداع، والتي تعجز عنها قصائد الشعراء.

تنهد "عبد الرحمن" ثم اصطنع سعالات متكررة، حتى ينتبه "محمد".

لم يلتفت "محمد" إليه، وكذلك نوسة وحمور، لم يعره أحد اهتمام، كأنهم يعاقبونه ويؤنبونه على هذه الخطوة التي عزم عليها.

هز رأسه في يأس، واقترب أكثر، ثم قال: لماذا تقلقنا عليك يا "محمد".؟

لم يسمع رداً، غير دمعة حبيسة في عين "محمد"، تود أن تنطلق، تود أن تملأ الدنيا صراخاً، لكن "محمداً" دائماً ما يتذكر وصايا جده.. "لا تبك".. حتى أنعم بطعام الجنة، وفواكه الجنة، وحتى لا ينطفئ نور القبر".

لم يستطع "عبد الرحمن" أن يمسك دموعه، فأطلقها وهو يقول: نحن مثلك.. يعز علينا فراق "حمور ونوسة"، ولكن لم يستطع أحد رعايتهما بعد جدك رحمة الله عليه.

ثم تقدم وأخذ برأس "محمد" في صدره، وربت على جسده في حنان، وقلبه هو الآخر ينفطر حزناً .

سرعان ما جاءت والدته ثم تبعتها جدته، وتناوبتا احتضانه في لهفة، وأنبتاه في لين، لأنه أثار خوفهم عليه.

ثم وضعت "فاطمة" العلف لـ "حمور ونوسة" سريعاً، وحاولوا أن يأخذوا "محمداً" إلى الدور الثاني، لينام بعض الوقت.

لكن "محمداً " رفض مفارقة المكان، رفض أن يترك "أبطال حكايات جده في اللحظات الأخيرة، فاضطروا أن يجلسوا حوله.

والغريب.. أن "حموراً ونوسة" لم يقربا العلف الذي وضعته "فاطمة"، رغم أنه فول تحبه كل الحيوانات.

ظلا يمسحان رءوسهما في وجه "محمد"، كأنهما أقسما أن لا يذوقا شيئا في بيت عز فراق أهله.

هل شعرا بالفراق حقا..؟

هل عز عليهما فراق صديقهما "محمد"..؟

هكذا كان يتساءل "عبد الرحمن" في عجب شديد.

لم يمض وقت طويل، حتى جاء صوت كبير العائلة: يا أستاذ "عبد الرحمن".. يا أستاذ "عبد الرحمن".

ذهبت "فاطمة" تفتح الباب، وتقدم "عبد الرحمن" ليفك رباط الجاموسة والحمار، ليسلمهما إلى كبير العائلة ومن معه من الأقارب.

"محمد" صامت، قلبه يتمزق، يتمنى أن يصرخ.

لكن الجاموسة أنابت عنه، وأرسلت خواراً خفيفاً، تشعر فيه بالمعنى الحقيقي للحنين، وكذلك الحمار، همهم خفيفا، كأنه يسترحم "عبدالرحمن" أن لا يفعل.

شعر "عبد الرحمن" بهزة تجتاح جسده، كأن مساً كهربائياً سرى في أعضاءه، فتوقف لحظة، وبدأ يفكر: ماذا لو أبلغ أعمامه وأقاربه بالعودة عن اتفاقه معهم أمس..؟

لم يتركه كبير العائلة لكي يفكر، كان يردد النداء، يريد أن يلحق العربة مع باقي أفراد العائلة، والتي سوف تنقلهم إلى السوق.

رغم الرعشة التي تجري في يديه، عاد يكمل فك رباط الجاموسة والحمار، يتحاشى النظر في وجه "محمد"، حتى لا يرى دموعه فيضعف ويعود عن قراره.

لكن... أفزعه نهيق الحمار ، لقد جاء عاليا هذه المرة، كأنه يثور حقا، وكذلك الجاموسة، أرسلت خوارا مخيفا غاضبا، لم يسمعه "عبد الرحمن" من قبل.

وبدون إرادة.. نظر "عبد الرحمن" إلى "محمد"، كأنه يستنجد به، فرأى وجهه قد اغتسل بالدموع.

ترك الرباط، وهمّ بالاقتراب منه، يريد أن يأخذه في أحضانه، يريد أن يقول شيء، لكنه لم يفعل، لقد جاء كبير العائلة، ودخل مسرعا، فك رباطهما، وبدأ يسحبهما بعنف.

لم تذهب معه الجاموسة، رغم أنه استخدم كل قوته في سحبها، ولكنه رفع عصاه الغليظة، وضربها عدة ضربات، فنهض "محمد" من مكانه مفزوعا، يتأوه من تلك الضربات، ود لو أنه أمسك العصا، ورد له الضربات عشرات المرات.

شعر "عبد الرحمن" بما يجول في نفس "محمد"، أسرع إلى الرجل، وأخذ منه العصا بهدوء، حتى لا يضرب الجاموسة.

ويبدو أن الجاموسة كانت أكثر شفقة على "محمد"، فسارت مع الرجل، حتى لا يتأوه هو من ضربات الرجل.

سارت في هدوء، بعد أن أرسلت خوارا شديدا، تبعها الحمار بنهيق أشد ومتكرر.

خرج الحمار والجاموسة من المنزل، وسارا في الشارع بخطوات بطيئة جدا، في طريقهما إلى العربة التي تقف على باب الشارع.

ترى .. لماذا يسيران بهذا البطء الشديد، هل كانا ينتظران قرارا من "عبد الرحمن" بالعودة مرة أخرى إلى الزريبة..؟

هل شعر "عبد الرحمن" بهما كما شعر "محمد"..؟

نعم.. شعر "عبد الرحمن"، وشعرت "فاطمة" والحاجة أمينة"، حتى أنهم بكوا لفراقهما، بكوا بحرقة شديدة، وكيف لا.. وهما آخر الأحياء من رائحة الحاج "علي".

وعلي باب الشارع، وقبل أن يدفعهما الرجال فوق العربة، استدار الحمار والجاموسة إلى الدار، يبدو أنهما أبيا أن يودعا أهل الدار في صمت.

أرسل الحمار النهيق الأخير له في هذه البلدة، أرسله بقوة.

"عبد الرحمن" وقف مذهولاً، لم يعرف ماذا يقول الحمار في النهيق الأخير، هل يلعنه لتفريطه فيهما.. أم يشكره على الأيام الجميلة التي عاشها في هذه الدار.

وكذلك الجاموسة، أبت هي الأخرى أن تودع أهل الدار في صمت، وأرسلت خوارا ليس بأقل من الحمار حرقة وحزنا، ودعت فيه هذا المكان الذي عاشت به أفضل أيام عمرها.

نظر "عبد الرحمن" إلى "محمد"، كان يود أن يسأله عن لغتهما، فهو أكثر منه خبرة في فهم هذه اللغة.

لكن "محمداً " انفجر بالبكاء، لم يستطع أن يقاوم دموعه أكثر من ذلك، ودخل الدار ينتحب، بعد أن سارت العربة.

كذلك الحاجة "أمينة" وابنتها "فاطمة".

"عبدالرحمن" لم يصدق هذه الحميمية بين "محمد" ونوسة وحمور، ولم يصدق أن "محمد" يحزن بهذا الشكل لفراقهما.

ثم تساءل: هل يطول الحزن بـ "محمد"..؟ وإذا طال..فكيف الخروج منه..؟

وبدأ القلق يسيطر على "عبدالرحمن"، فهو يخشى أن يطول الحزن بـ "محمد"، وخصوصا هذه الأيام،لأنه مقبل على الامتحانات.

دخل المنزل مسرعاً، وجد والدته تجلس على الحصيرة الكبيرة في الصالة كعادتها، تنتحب في صمت، بجوارها "فاطمة" التي لم تكن بأقل من أمها حزناً.

فقال بلهجة المؤنب في لين: ما بكما يا أماه.. الأمر لا يحتاج كل هذا الحزن..؟

قالت الحاجة أمينة": ولم لا نحزن يا ولدي.. هذه آخر الأشياء من رائحة المرحوم والدك، غير أنها روح مثل الإنسان.

وقالت "فاطمة": فراق الحيوان صعب مثل فراق الإنسان بالضبط يا "عبدالرحمن".

- نعم.. لكن ماذا يفعل "محمد" وأنتم بهذا الشكل..؟

مرت لحظة صمت إلا من النحيب، ثم سألهما: أين "محمد"..؟

- في حجرته..؟

اتجه إلى حجرة محمد، وجده جالسا على فراشه، ينظر بوجهه إلى الأرض، يبدو انه فقد الأمل في جده، ولذلك لم ينظر إليه الآن.

جلس "عبد الرحمن" بجواره، وسرى براحته على رأسه وقال: تعال نتناول الفطور.. ثم نم كما تشاء.. أنت لم تنم طوال ليلة أمس.

لكن "محمد" لم يرد، أدرك "عبد الرحمن" أنه بدأ طريق الصمت، هذه عادته كلما أحزنه شيء.

فتركه وذهب، وقلبه يتضرع إلى الله أن يخرج "محمد" من حزنه هذا في أقرب وقت.

***

لم يذهب "عبد الرحمن" إلى عمله هذا اليوم، جلس يراقب "محمد"، يتمنى أن يخرج ويطلب الطعام، أو يجلس معهم.

لكن "محمد" لم يفعل، مكث في حجرته، راقداً على الفراش، لم يعرف أحد.. هل ذهب في النوم.. أم مازال مستيقظا..؟

وعند العصر، دقَّ جرس الباب، فإذا بصديقه المخلص عمار، والذي لم يتركه يوماً واحداً .. كيف غاب عن عقل "عبد الرحمن".؟ هو الوحيد الذي يستطيع أن يخرج "محمد" من عزلته، فلماذا لا يستعين به في هذا الأمر.؟

سرعان ما أدخلت "فاطمة" الطعام، على أمل أن يأكل "محمد" شيئا مع صديقه، فهو لم يأكل منذ ليلة البارحة.

وبعد قليل.. خرجا معا من الحجرة، ونزلا إلى الشارع، و"عبد الرحمن" يراقبهما من النافذة، ورأى أنهما يتوجهان وسط الحقول، فأدرك أن "محمد" ذاهب إلى قبر جده، تلك هي عادته كلما غضب من شيء.

هناك على قبر جده، جلس ساعة، اشتكى ما كان يحبسه في صدره منذ ليلة البارحة، قال له كل شيء، وتمنى لو أن جده يأخذه معه، فهذا أفضل من أن يعيش في هذه الدنيا.

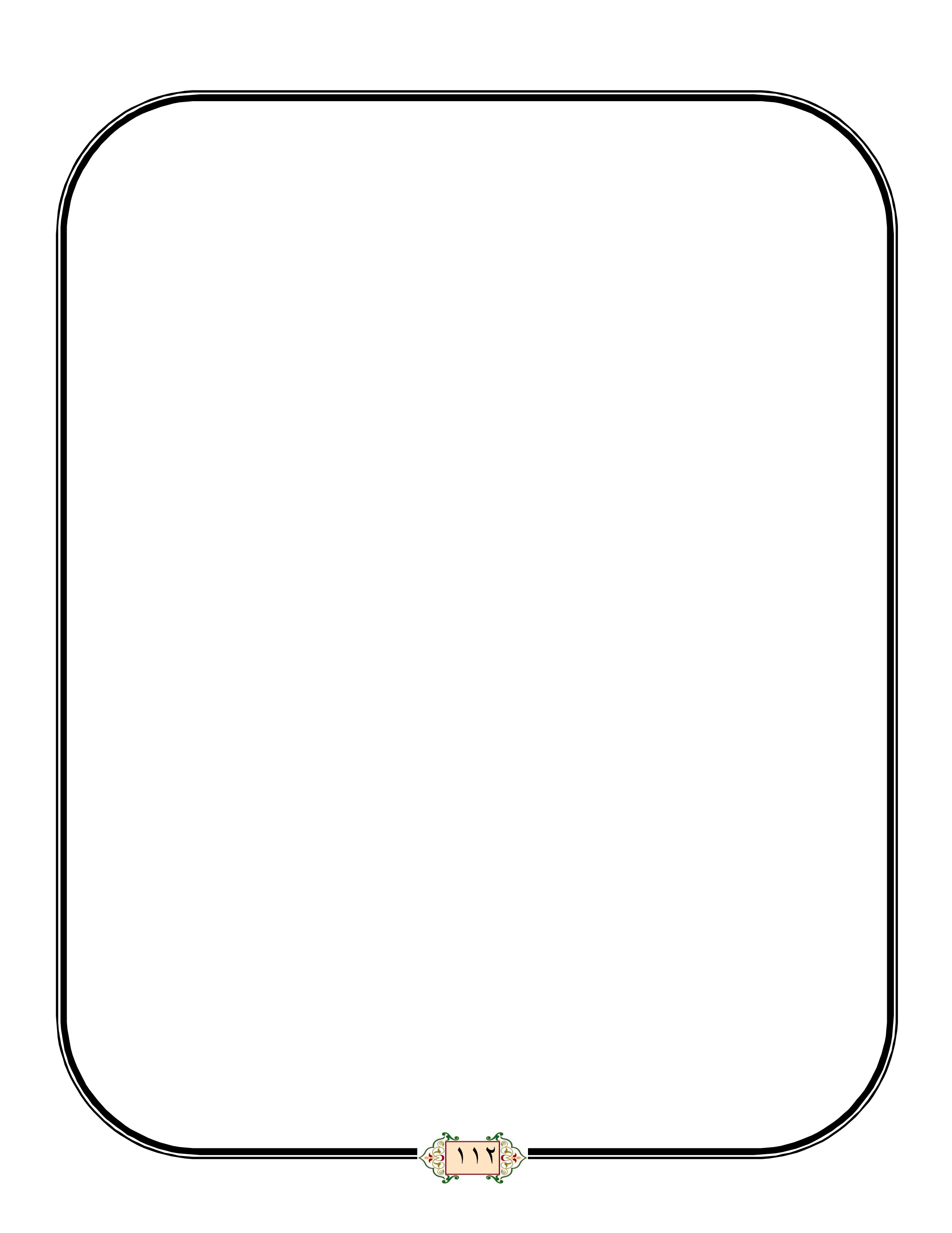
ثم ودع القبر، قام وخلفه "عمار"، الذي يرافقه كظله، والذي عرف كل شيء من شكواه، واتجها داخل الحقول.

لم يسأل "عمار" أين يذهب.. ولماذا..؟ فهو يسير معه دون نقاش، حتى وصلا إلى رأس الحقل، وقف على المكان الذي كانت تقضي فيه الجاموسة يومها بجوار الحمار، كأنه يقف على أطلال صرح كان شامخاً.

ومرت الأيام، ورسب "محمد" للمرة الثانية على التوالي، ولم يعد أمامه إلا مدارس التربية الفكرية.

وكذلك "عمار" رسب هو الآخر، وأسلم نفسه للشارع.





البديل

لاحظ العم بركات، أن "عبد الرحمن" ليس على ما يرام، فاليوم يراه كثير الصمت، كثير الشرود، تخرج منه تنهيدات حارة بين الحين والآخر، مما أقلق العم بركات على صديقه الحميم.

ورأى أنه من الواجب أن يسأله، طالما أنه لم يحك من تلقاء نفسه: ما بك يا أستاذ "عبدالرحمن".

تنهد طويلا ثم قال: "محمد" يحبس نفسه في الحجرة، ويرفض الطعام والحديث معنا، حزنا على بيع الجاموسة والحمار.

- آه.. أنا توقعت ذلك.

- لم أعرف ماذا أفعل.

سكت العم بركات، شارك صديقه الحزن، لأنه لم يستطع مساعدته في الخروج من هذا المأزق.

مرت لحظات من الصمت، كل منهما يفكر، كيف يخرج "محمد" من حزنه..؟

أغمض "عبد الرحمن" عينيه برهة، ثم قال: أتعرف يا عم بركات..

- ماذا..؟

- مثل "محمد" يرضي بالبديل، حتى ولو كان قليل.

هز العم بركات رأسه، يريد منه أن يوضح أكثر، فاستطرد قائلاً: قال والدي ذلك ذات مرة، ولكن.. ما البديل الذي يتناسب معنا الآن..؟

عاد الصمت مرة أخرى، يبحث كل منهما عن بديل للحمار والجاموسة، بشرط أن لا يشغل "فاطمة" عن مراعاة والدتها، ولا يرهقها إذا قامت برعايته.

وفجأة.. قطع الطريق سرب من الأغنام والماعز، يقوده عدد من الرجال، في طريق العودة إلى بيوتهم، فاضطر العم بركات للوقوف، كما وقفت العربات المارة كلها.

مازال الصمت يخيم عليهما، انشغلا بمراقبة قطيع الأغنام أمامهما، عن التفكير في إيجاد البديل لـ "محمد".

ثم قطع العم بركات الصمت وقال: سبحان الله.. خلق فأبدع .

قالها العم بركات حين شاهد عنزة شديد البياض، موشحة بلون بني فاتح، يسير ورائها اثنان من صغارها نفس اللون.

في نفس اللحظة، كان "عبدالرحمن" يسبح الله بينه وبين نفسه، عند رؤية هذا المخلوق الجميل الذي خطف الأبصار.

وتذكر حكاية العنزة التي تغلبت على الذئب، وأنقذت أولادها، كان يحكيها والده الحاج "علي"، "محمد" يحب هذه الحكاية، حتى أنه كان يطلب سماعها أكثر من مرة.

نزل "عبد الرحمن" من العربة مسرعاً، شق قطيع الأغنام بصعوبة، حتى وصل إلى كبير الرجال، وسأله أن يشترى منه العنزة بأولادها.

وبعد مفاوضات، حملها الرجل هي وأولادها، ووضعها فوق العربة، ومعها كمية من البرسيم.

غمرتهما السعادة بهذه العنزة الجميلة، انكسر الصمت، بل تحطم، حتى أن كلا منهما يريد أن يتحدث قبل الآخر، ويسأل قبل الآخر، بل ويجيب نيابة عن الآخر.

هل "محمد" سوف يكون سعيدا بهذه الهدية...؟

"عبد الرحمن" سأل هذا السؤال.

والعم بركات سأل نفس السؤال.

والغريب أن "عبد الرحمن" هو الذي أجاب وقال: نعم نعم.. سوف يفرح كثيرا، فهو يحب العنزة " عزة وأولادها عزوز ومعزوزة"، وله معهم حكاية رائعة كان يسمعها من جده".

قهقـه العـم بركـات، وخـرج عـن عادتـه، أسـرع بالعربـة، يريـد أن يطـوي الأرض، حتـى يلحـق "محمـد" قبـل غـروب الـشمس، ويـرى أصدقاءه بألوانهم الجذابة.

"أسرع يا عم بركات.. أسرع.. كم أنا مشتاق لرؤية السعادة على وجـه "محمـد"، اشـتاقها الآن بـشدة"، لا أطيـق أن يـشعر "محمـد" بلحظة حزن".

هكذا قال "عبد الرحمن" وجسده ينتفض من فرط سعادته.

***

دخـل "عبـد الـرحمن" المنـزل وهـو يـصيح فرحـاً : "محمـد".. يـا "محمد" .

اشتمت الحاجـة أمينـة" وابنتها "فاطمـة" البشرى السارة من نبرات نداداته.

حاولت "فاطمة" أن تقوم لتخبر "محمداً " أن "عبد الرحمن" جاء، ويبدو أن معه هدية عظيمة.

لكنها لم تلحق أن تقوم من مكانها، كان "عبد الرحمن" أسرع، لقد قطع درجات السلم بسرعة غير عادية.

دخل حجرة "محمد" وهو يلهث، أخذ رأسه في حضنه وقال: لقد أتيت بأصدقاء أعزاء لديك يا "محمد".

انتزع "محمد" رأسه من صدر "عبد الرحمن"، وقال بلهفة ممزوجة بالفرح: حمور ونوسة..!

- لا .

انطفأت الفرحة في عين "محمد"، عاد إلى جلسته على الفراش، لقد خاب أمله.

لكن "عبد الرحمن" انتزعه من ذراعه، وقال: أصدقاء أنت تحبهم ويحبونك، حدثك جدك عنهم كثيرا، فكر يا "محمد"... لقد جاءوا إليك، يريدون العيش معك دائماً.

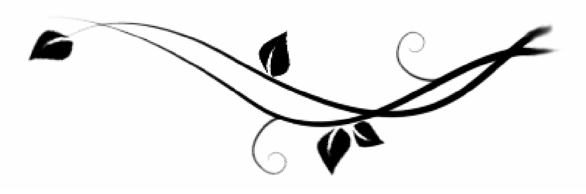
نظر "محمد" في وجهه متسائلاً في صمت، يريد أن يقرأ عن أصدقائه في ملامح "عبد الرحمن"، الذي ابتسم مؤخرا وقال: أتتذكر صديقتك "عزة وابنيها عزوز ومعزوزة.

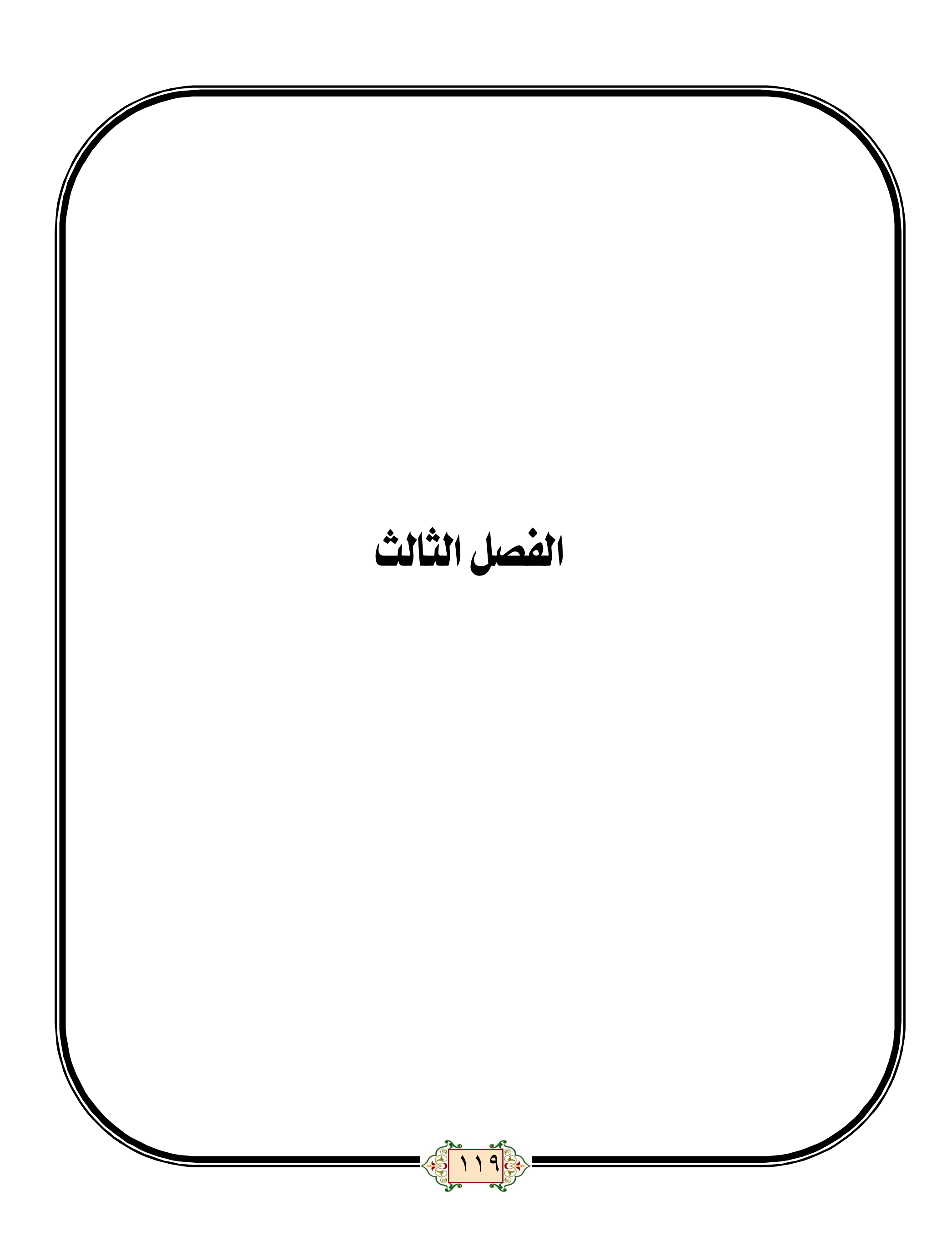
ضرب "محمد" رأسه بكفه قليلاً، كأنه يؤنب نفسه لأنه لم يتذكر أصدقاءه القدامى، ثم قال: نعم...لكن أين هم..؟

- تحت في انتظار أن تأذن لهم.

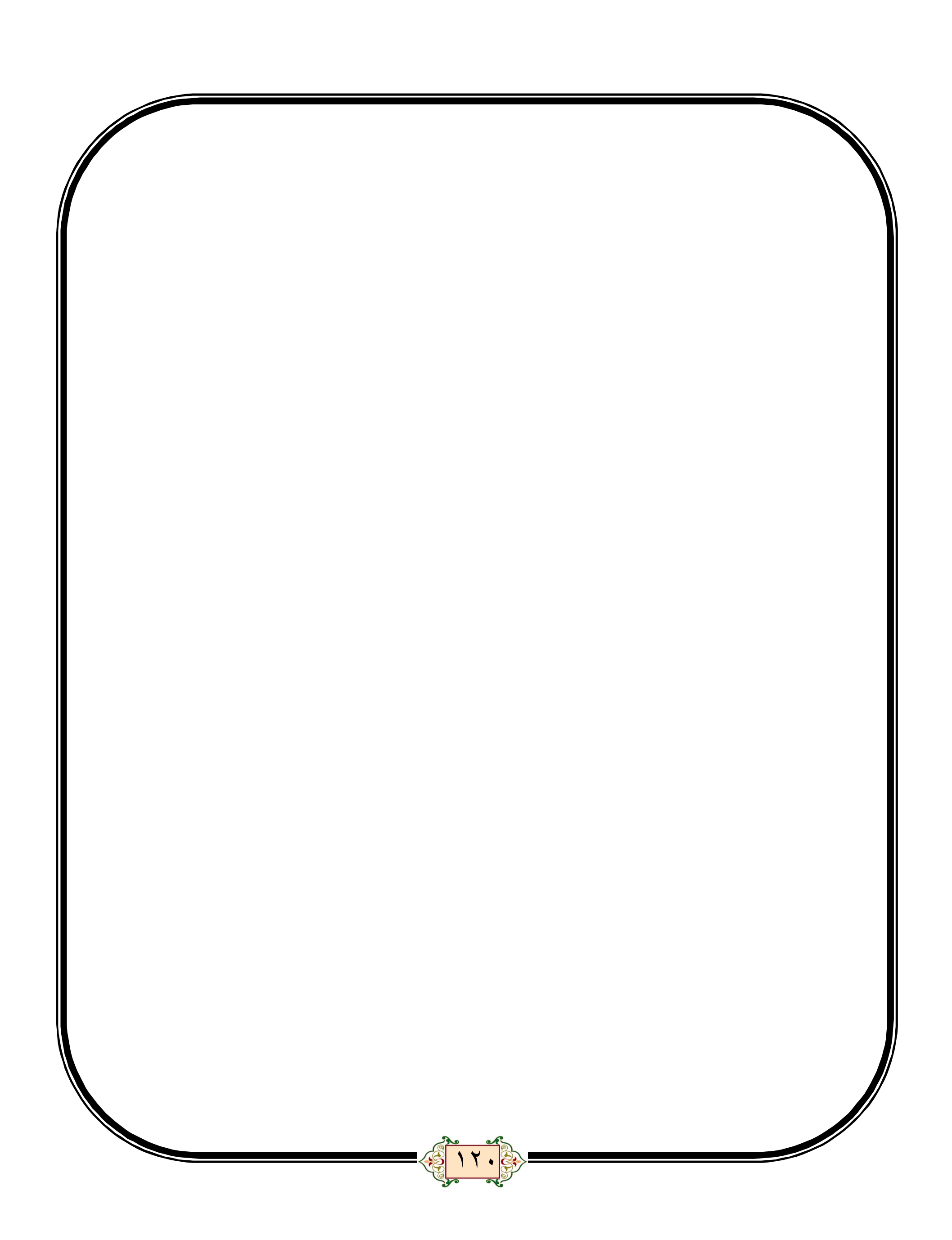
طار "محمد" من أمام "عبد الرحمن"، عبر الصالة دون أن ينظر إلى جدته وأمه، هبط السلم مسرعاً، أبهرته العنزة وأولادها بألوانهم

الجذابـة، سلم علـي العم بركـات فـي عجالـة، وصـعد فوق العربـة، يتلمسهم مرة، يحتضن الصغار مرة أخرى.





الفصل الثالث



مدرسة التربية الفكرية

ليس سهلاً على قلب "عبد الرحمن" أن يكون مصير "محمد" في مثل هذه المدرسة، ليس تقليلاً من مكانتها ودورها الاجتماعي، ولكن يعز عليه أن يضيع المجهود الذي بذله طوال السنوات الماضية، ومجهود والده أيضاً، كل هذا ذهب هباءا مع الريح.

وكذلك "محمد"، عبر عن عدم رضاه بهذا المصير، فلم يتزاحم على الصف الأول كعادته، جلس في مقعد أخير منفرداً بنفسه، ولم يتخذ من الفصل صديقا واحدا، ينظر لكل شيء حوله بدون اهتمام.

أثارت هيئته اهتمام الأستاذة "منار"، ظلت تراقبه، رأته يجلس وحيدا صامتا، لا يتحدث مع أحد، لا يشارك زملاءه الحركة أو الحديث، حتى لو حاول أحد اجتذابه للحديث، يكتفي بالنظر إليه دون أن ينطق بشيء.

تعجبت الأستاذة "منار"، لم تعرف كيف تفسر نظراته هذه، هل هي بلاهة حقاً.. أم أنه يرى نفسه أعلى مكانة عن كل هؤلاء..؟

وفـي آخـر الأسـبوع الأول، أصـرت أن تختبـره، فنـادت عليـه، وطلبت منه أن يخرج إلى السبورة.

وسألته: ما أسمك..؟

رد عليها بهدوء: "محمد" محجوب عز الدين..

هذه أول مرة تسمع صوته، فتعجبت لرتابته وهدوءه، وقالت: أنت تتكلم يا "محمد"..

- نعم..

- هل تعرف أن تكتب أسمك على السبورة..؟

اتجه بجسده الذي مال إلى السمنة إلى صندوق الطباشير، انتقى اللون الأحمر، وكتب اسمه على السبورة بشكل منسق جداً.

هللت الأستاذة "منار" فرحاً، وقالت: أنت شاطر جدا يا "محمد" .

لم تهزه كلماتها، ولم يبال بتهليلها الزائد، فتعجبت أكثر، ثم قامت بإملائه بعض كلمات أخرى، فكتبها بسهولة.

أيقنت الأستاذة "منار" أنه يختلف عن كل ما في المدرسة حقا، وأن وراء هذا الطفل قصة كفاح كبيرة، لذلك.. أرسلت في طلب ولي الأمر.

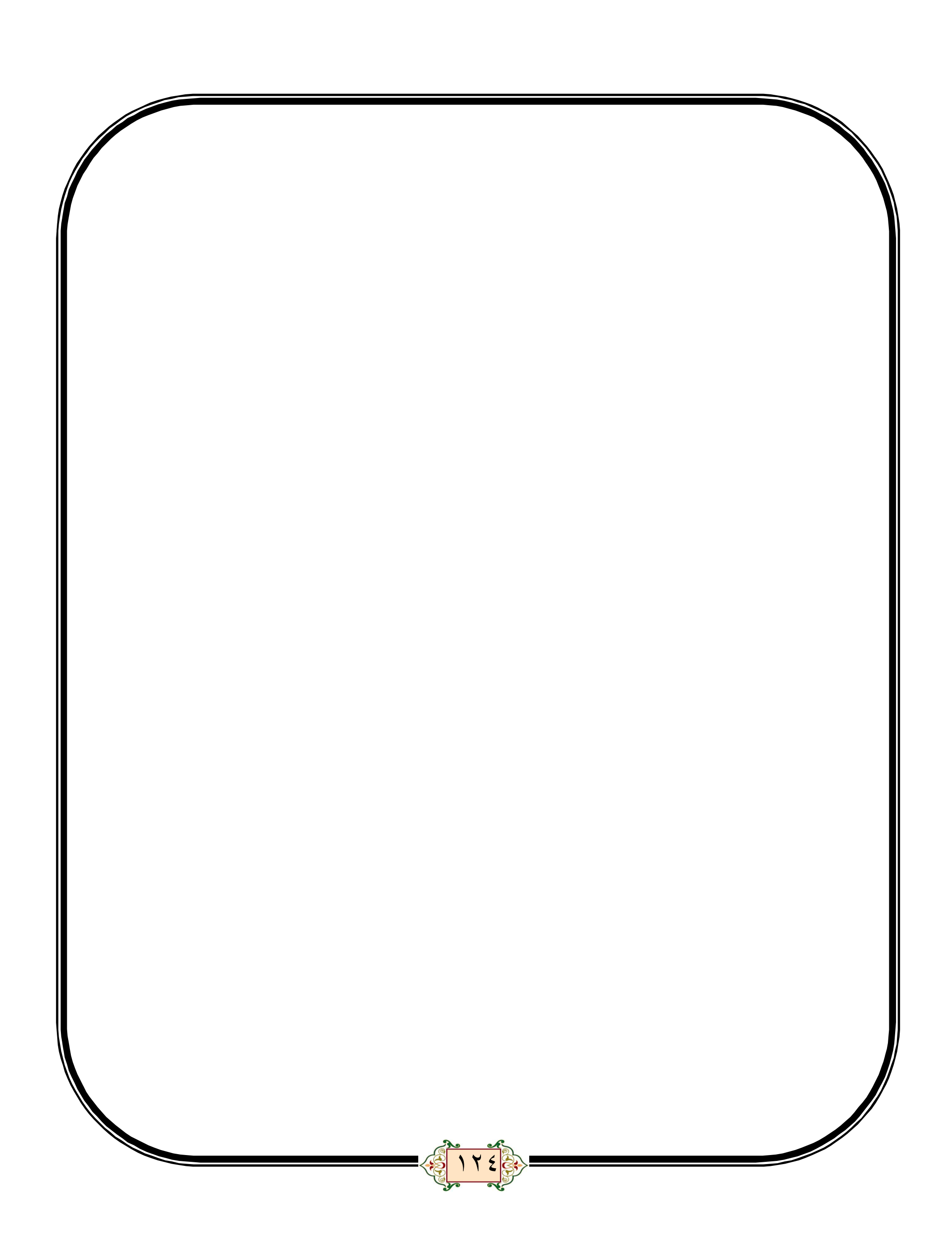
* * *

منذ أن أصبح "محمد" في مدرسة التربية الفكرية، تغير جدول السفر تماما، لأن المدرسة في المدينة، و"محمد" يحتاج من يصطحبه في الذهاب والإياب.

فكان يصطحبه في الصباح إلى المدرسة، ثم يذهب إلى عمله الحكومي، ثم يسافر إلى المحافظات القريبة، ويعود مع خروج "محمد" من المدرسة، فيصطحبه إلى المنزل.

أما في الأيام التي يسافر فيها إلى المحافظات البعيدة، كانت "فاطمة" تتولى أمر "محمد" في الذهاب والإياب، تجلس أمام المدرسة، مثلها مثل الكثيرات من الأمهات، ينتظرن خروج أولادهم، ليعدن بهم إلى المنزل.





اللقاء الأول

في الأسبوع التالي، جلس "عبد الرحمن" أمام الأستاذة "منار" في حجرة مدير المدرسة، الأستاذ "عبد الخالق عز"، والذي بالغ في الترحيب به.

قالت الأستاذة "منار": قرأت الملف الخاص بـ "محمد"، وقمت باختباره، أبهرني ذكائه، لكن أزعجني انطوائه وعزوفه عن مشاركة التلاميذ، فأخبرني عن حياته حتى أستطيع التعامل معه.

سلط "عبد الرحمن" نظراته في الأرض، كان يداري دمعة أرادت الانفلات من محاجرها.

شعر مدير المدرسة بما يجول في صدره من أحزان، طلبت منه الهدوء، وضغطت على زر الجرس، فجاء الساعي، وطلبت منه ثلاثة فناجين من القهوة

وبعد قليل، بدأ يحكي قصة "محمد" كلها، يحكي كل صغيرة وكبيرة منذ ولادته، ويجيب على كل سؤال من مدير المدرسة والأستاذة "منار"، حتى اللحظة التي هو فيها الآن.

ثم ختم حديثه وهو يمسح دموعه قائلا: أشعر أنه أدرك أنني لست والده، وفقد الثقة في كل من حوله، وأصبحت في نظره إنسان كاذب، بعد أن كنت كل شيء عنده، أشعر أنه يكرهني، نعم يكرهني.

والخوف أن يمتد به التفكير إلى جده، ويظنه كاذبا هو الآخر.

وقتها سوف تتهدم عنده كل القيم والمبادئ، سوف ينهدم الصرح الشامخ الذي يعيش في نفسه، ويجف النهر الذي تستقي منه روحه، ويضيع "محمد" للأبد.

ثم مسح دموعه وهو يقول، أنا لا أعرف كيف يكون المخرج من هذا المأزق.

كانت الأستاذة "منار" تتابع كلمات "عبد الرحمن" باهتمام بالغ، كانت تعيش مع كل حرف يخرج من أعماقه، تتلظى بقدر سعادتها بما تسمع.

ثم قامت من مقعدها، وشدت على يديه في إعجاب شديد، وقالت بصوت مبتسم: أنا سعيدة بكم يا أستاذ "عبد الرحمن".

نظر إليها في تعجب.

لكنها استطردت قائلة: نعم.. سعيدة لأنني عثرت على أسرة فعلت ما لا يفعله غيرها مع حالة مثل حالات "محمد"، وسعيدة للإنسانية المفرطة التي أنتم عليها، ولذلك أقف لكم احتراما وتقديراً.

ثم طمأنته قائلة: اسمح لي أن أتولي أمر "محمد"، وإن شاء الله سوف يخرج من هذا المأزق، وسوف أعيده لكم كما تحبون .

نهض الأستاذ "عبد الرحمن" من مقعده فجأة، شد على يد الأستاذة "منار"، كأنه غريق ألقي إليه بحبل النجاة، وقال بلهجة الغير مصدق: هل حقا تستطيعين أن تعودي به كما كان.

ابتسمت في ثقة، لكن الأستاذ "عبدالخالق" أجابه قائلا: اطمأن يا أستاذ "عبد الرحمن"، الأستاذة "منار" من أفضل المدرسات في المدرسة، غير أنها تقوم بإعداد رسالة ماجستير في حالة مثل حالات "محمد"، وهذا من الحظ السعيد لكم.

***

الأستاذة "منار"

رأت الأستاذة "منار" في "محمد" فرصة عظيمة لها، فهو تجربة حية تساعدها في إعداد رسالة الماجستير، ولذلك.. بدأت الاقتراب منه.

نقلته من المقعد الأخير إلى مقعد في الصف الأول ، ثم أوكلت له رئاسة الفصل، وأعمال أخري كثيرة، منها الذهاب إلى مكتب الأستاذ "عبد الخالق"، لإحضار شيء منه، أو حمل شئ إليه.

أسبوعاً كاملاً... لم تجد منه قبولا، مازال يشعر بالغربة في هذه المدرسة، ويشعر بعدم الآمان لأحد، وعدم تصديق أحد، فاقد الثقة في كل من حوله.

وفي أول الأسبوع التالي، رأت الأستاذة "منار" إحدى عاملات مدرسة تطرق باب الفصل، همست لها أن الأستاذ "عبد الخالق" يريدها الآن في مكتبه.

خرجت مسرعه، بعد أن أوكلت إلى "محمد" رئاسة الفصل.

في مكتب المدير، رأت "عبد الرحمن" يجلس في انتظارها، وعلى وجهه علامات القلق.

جلست أمامه بعد أن تبادلا التحية.

سألها الأستاذ "عبدالخالق": كيف كان حال "محمد" يا أستاذة " منار" في الأسبوع الماضي..؟

- مازال يقابل كل شيء بعدم اهتمام، بل وزادت درجة اللامبالاة عنده، ويرفض اقترابي منه، وأرى أن وزنه في ازدياد ملحوظ.

سكت الأستاذ "عبد الخالق"، بعد أن أعرب عن قلقه، وخوفه أن تفشل مع "محمد".

"عبد الرحمن" يتعلق بكلماتها، كان يتمنى أن يجد عندها شيئا يريحه من قلقه، الذي يعيش فيه طوال الأسبوع الماضي.

تنهد "عبد الرحمن" تنهيدة حارة، ثم قال: "محمد" انقطع عن الحديث تماما مع من في المنزل، حتى صديقه "عمار" لم يهتم بزيارته إذا جاء، وكثيرا لا يرد عليه، حتى أصدقائه : عزة ، وعزوز ، ومعزوزة ، لم يعد يجلس أمامهم ويناولهم الحشائش بيده، كما كان يفعل من قبل.

سكت برهة، حاول فيها أن يمسك عن دموعه، ثم قال: الغريب أنه لم يعد يزور قبر جده، وهذا ما يزعجنى حقا، أخاف أن يكون جده وقع من قلبه، كما وقعت أنا وكل من حوله.

قال الأستاذ "عبدالخالق": أرجو أن تهدأ يا أستاذ "عبدالرحمن"، حتى نفكر في الأمر.

رفعت الأستاذة "منار" رأسها ، ثم قالت: أرى أن "محمد" يرفض اقترابي منه في محيط المدرسة، وأريد أن أجرب الإنفراد به خارج هذا المحيط.

سكتوا لحظة، كأنهم يفكرون في الأمر، لكنها استطردت قائلة: طبعاً قرية شبرا ملكان ليست بعيدة عن المدينة، ومن الممكن أن تأخذه مني عند المغرب، ربما أجد باباً للدخول إليه.

قال "عبد الرحمن": نعم هي فكرة رائعة، ولكن أخشى أن أحملكم فوق طاقتكم.

ابتسمت وقالت: "محمد" أخي الصغير، وهذا واجبي، وأسعد بذلك.

– ممكن أن نؤجل هذا الأمر للغد، حتى نمهد له.

– كيف..؟

– أحضرت معي لعبة هو يحبها، لتقدميها أنت إليه هدية بنفسك، بعد سؤال يجيب عليه، أو بعد مسابقة تجريها في الفصل، ثم تخبريه بمرافقتك في الغد، كمنحة منك لأنه فاز في المسابقة.

– فكرة رائعة يا أستاذ "عبد الرحمن".

قال الأستاذ "عبدالخالق": هل جربت معه الحكاية يا أستاذة "منار..؟

- لا...

- كيف .. وأنت تعلمين أن الحكاية لها تأثير فعال في عقل أي طفل، وهذا ما ينهض بعقله وخياله.

- نعم .. الحكاية في جدول أعمالي... لكن.. لم أبدأ فيها حتى الآن، لأن الجدول مزدحم، والوقت ضيق، وكما تعلمون أن عدد تلاميذ الفصل فوق طاقة أي معلم.

- لا أنكر أن عدد الفصل فوق طاقة أي معلم... ولكن ضعي الحكاية أولى اهتماماتك، واجعلي "محمد" من أبطالها، وبهذا سوف يخرج من البوتقة التي سجن نفسه فيها.

- هل تعتقد ذلك..؟.

- نعم.. ويا حبذا لو جعلت المسابقة في أحسن حكاية يحكيها تلميذ.

سكتت الأستاذة "منار" برهة، ثم قالت: كل ما قلناه سوف أقوم به الآن، ولكن أرى أن البداية يجب أن تكون من المنزل.

قال "عبد الرحمن": نحن في المنزل نقوم برعايته على أكمل وجه .

- نعم.. أقصد أن أزوركم في المنزل بدعوة منكم، ومن المنزل أبدأ معه، أشاركه أشياءه أولا، وبهذا أكسر حاجز الخوف الذي ينتاب التلاميذ من المعلم، حتى يتقبل كل ما يسمعه مني.

- نشرف بحضراتكم في أي وقت تشاءون.

- إذن أتركه لي، سوف أعود به إلى المنزل من الغد، وتفرغ أنت لعملك، ودعني معه.

قام "عبد الرحمن" مودعاً إياهما وهو يقول نبرة حزينة : أعرف أن المشكلة ليست بالهينة، لأنها مشكلة خاصة، فمن المعروف إذا عمت الأزمة هانت، واستعصت إذا كانت خاصة".

***

خرجت الأستاذ "منار" من مكتب مدير المدرسة، تحمل صندوقاً صغيراً به الهدية، وهي عبارة عن عصفور يطير "بالريموت كنترول"، ويصدر أصواتاً بين الحين والأخر، وهذا ما كان يحبه "محمد".

دخلت الفصل، وطلبت من التلاميذ أن ينتبهوا إليها، ثم بدأت تفتح العلبة في بطء شديد، تريد أن تشد انتباههم، ترقب أعينهم، وخصوصا "محمد"، حتى أخرجت العصفور، وضغطت على الريموت كنترول، فطار في الهواء، والتلاميذ يصيحون فرحا، إلا "محمد"، كان ينظر بسعادة دفينة.

هذه أول مرة ترى وجه "محمد" وهو مبتسم، أدركت أن باب قلبه بدأ في الانفراج.

أمسكت العصفور، وأعادته إلى العلبة مرة أخرى، وطلبت منهم الإنصات إليها، ثم قالت:

- من يريد هذا العصفور..؟

صاح التلاميذ: انا... أنا يا أبله... أنا.." .

قالت: سوف نجري مسابقة، فمن يحكي حكاية جميلة، سوف يفوز بالجائزة.

صاح عدد كبير من التلاميذ، ومن بينهم "محمد": أنا... أنا يا أبله.... أنا..

لم تبدأ باختيار "محمد"، حتى ترى رد فعله، وبدأت باختيار اثنين غيره، فرفع يده أكثر حتى تراه، تمهلت قليلا، ثم اختارته الثالث.

وبدأ الأول في سرد حكايته، فكان سردا ركيكا، وحكاية لا فائدة منها، وكذلك الثاني، ثم جاء دور "محمد"، فوقف يحكي حكاية الدكتور "محمد" والعصفور، الذي كان يحكيها مع جده كثيراً.

قصها "محمد" بطريقة سرد مبهرة، حتى أن الأستاذة " منار" كانت في إعجاب شديد بتعبير وجهه ويده، وانفعاله وهدوءه، حتى انتهى من الحكاية، فاقتربت منه وقبلته، وقالت للتلاميذ:

– سوف نأخذ رأيكم، ما هي أفضل حكاية يا أولاد..؟

قال الجميع في صوت واحد: حكاية "محمد".

- إذن صفقوا له.

صفق الجميع، وأعطته الهدية، ففرح بها.

ثم قالت: ولأن "محمد" تلميذ شاطر، له عندي مفاجأة أخرى جميلة.

فسأل التلاميذ: ما هي يا أبلة ؟

- سوف أصطحبه في رحلة وحده إلى الملاهي بعد أسبوع.

صاح التلاميذ: ولماذا "محمد" وحده..؟

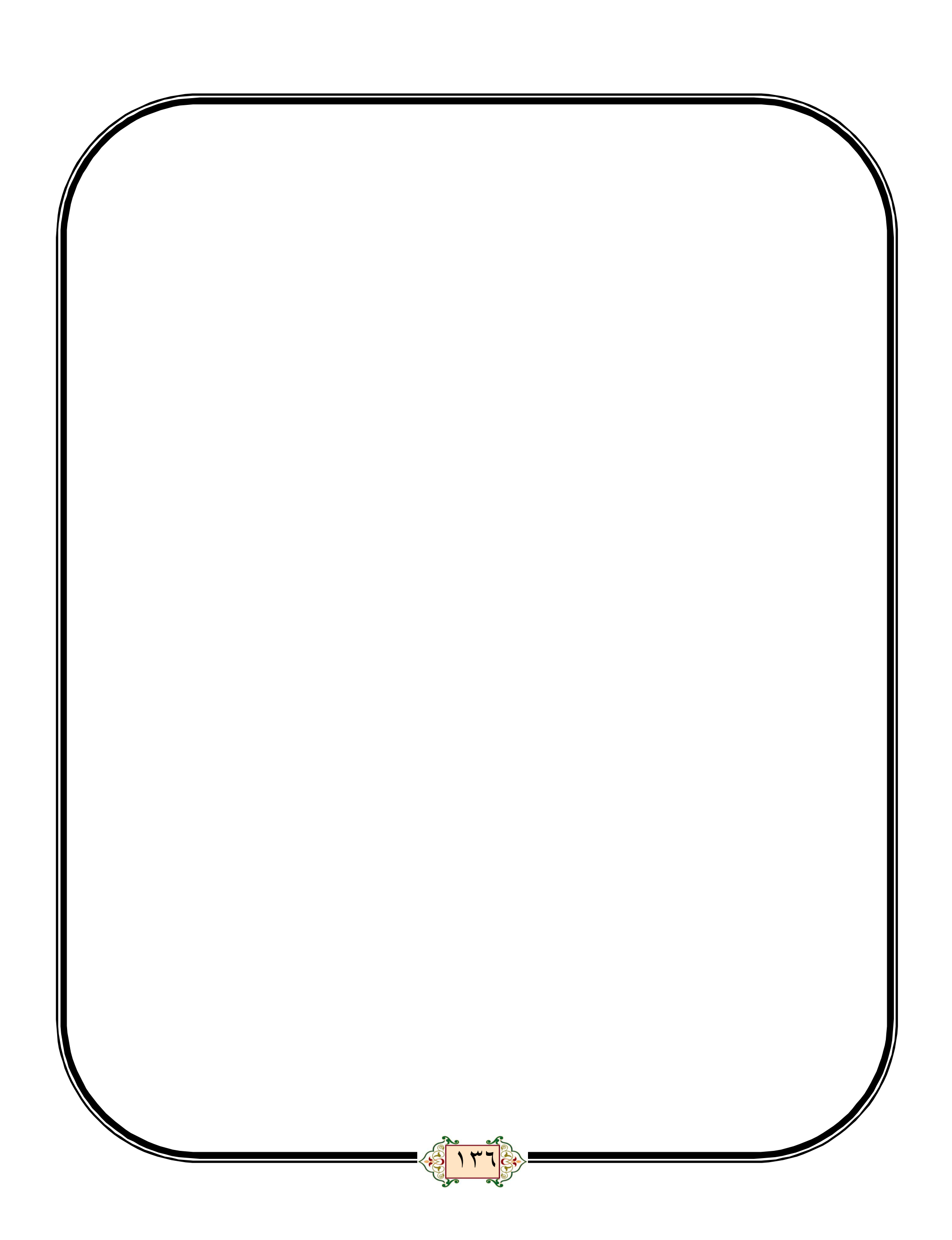
- لأنه تلميذ شاطر.

صفق التلاميذ له مرة أخرى.

كل هذا وهي تتابع وجه "محمد"، تقرأ الفرحة في وجهه، والنشوة والغرور معا يظهران على لفتاته وحركاته، وبدا عليه الاهتمام لما يسمع.

بدأ "محمد" يخرج من الصمت الذي كان يسجن نفسه فيه، ويجيب على كل أسئلة "عبدالرحمن"، لماذا أعطته الهدية.. وماذا قال.. وهل يحب الأستاذة "منار".. وهل هو سعيد برحلته معها في الأسبوع القادم..؟





زيارة الأستاذة "منار"

في نهاية اليوم التالي، ظل "محمد" جالسا في مكانه، حتى تخرج التلاميذ من الفصل، والأستاذة "منار" تشغل نفسها بترتيب حقيبة يدها، تنتظر ماذا يكون منه.

وبعد ما خرج التلاميذ، اقترب "محمد" منها، وقال: هل لي أن أدعو حضرتكم لزيارتنا .

التفتت إليه في انبهار، رغم أنها تعلم بأمر الدعوة مسبقاً، لكن انبهارها كان للطريقة التي وجه بها الدعوة، طريقة عقل يحفظ جيدا ما يملى عليه.

قالت: من صاحب الدعوة..؟

– أنا..

- ومتى يا "محمد"..؟

- الآن.

هللت الأستاذة "منار" وتأبطته فرحة، وخرجت به إلى الشارع.

سارا خطوات، لكنه توقف فجأة وسألها: إلى أين نذهب..؟

- إلى المحطة، ومن هناك نركب "ميكرباص" إلى "شبرا ملكان".

- لا.. لا.. انتظري حضرتك.

سحب ذراعه منها، ثم أشار إلى تاكسي، وفتح الباب الخلفي، وقال: تفضلي يا أستاذة.

ثم ركب بجوار السائق.

حالة من الذهول انتابت الأستاذة "منار"، كيف له هذا التصرف الذي لم يصدر إلا عن شاب واع تماماً.. يبدو أنه يحفظ كل ما يقال له، حقاً وراءه عقل متفتح واعي مثل "عبد الرحمن".

وقفز جده إلى عقلها، كم تمنت أن تحظى بالجلوس مع هذا الرجل البسيط، والذي استطاع أن يخلق من "محمد" إنسان أقرب للأسوياء، وزرع فيه أيضاً النزعة القيادية، ولازال يعيش داخل "محمد" رغم مرور عامين على رحيله.

والشيء الأعجب.. أن "عبد الرحمن" يخشى أن يقع والده من قلب "محمد"، فلو وقع سوف تكون كارثة، سوف ينطفئ النور الذي يستمد منه الحياة.

إذن هي أسرة على وعي تام رغم بساطتها.

انتبهت الأستاذة " منار" على صوت "محمد"، وهو يرشد السائق يقول له يميناً ويساراً.

خطفتها شوارع القرية ومبانيها الجديدة والنظيفة، كأنها أحد أحياء المدينة، وليست مثل القرى النائية التي قرأت عنها.

اخترق السائق القرية كلها، وخرج بهم إلى الزروع عدة أمتار، ثم توقف أمام منزل يقف وحيدا.

نزل "محمد" مسرعاً، وفتح باب العربة الخلفي.

في هذه اللحظة، شعرت أنها أميرة من الأميرات.

أخرجت من حقيبتها مبلغاً من النقود، لكن السائق أبلغها أنه أخذ منه.

تعجبت.. حاولت أن تقول شيئاً، كيف لتلميذها أن يتكلف هذا المبلغ الكبير عليه..؟

لم تلحق أن تقول شيئاً، لقد جاءت كلمات الترحاب متتالية من مدخل البيت، ورأت أذرع تنفرد على مصراعيها، عن صدر لا تستطيع أن تقاوم حنينه، ووجوه تعلوها الابتسامة، كأنها تعرف أصحابها منذ زمن.

تبادلن الاحتضان، ثم صعدوا جميعاً إلى الدور الثاني، ومازالت كلمات الترحاب تنطلق من لسان "فاطمة" والحاجة "أمينة".

تتأمل حولها بهو المنزل، مزيج من لمسات المدينة بروح القرية، ورائحة الزهور والفواكه تتسلل إلى أنفها، وأشعة الشمس تفترش جزءا من البهو، قادمة من النافذة الغربية.

ما أجمل البساطة في هذا المنزل.

كادت أن تذهب في تفاصيل كل جزء فيه، لكن.. كيف وكلمات الترحاب مازالت تتوالي على أذنيها.

سرعان ما وضعت "فاطمة" "صينية" كبيرة على طبلية وسط الصالة، تفوح منها رائحة "الفطير المشلتت"، على جوانبها بطتان ودجاجة، جذبت الرائحة معدتها الجائعة.

سألت عن "محمد" الذي غاب عن نظراتها منذ أن دخل المنزل، ثم رأته يخرج من حجرته، وقد غير ملابسه، قال لها: ممكن يا أستاذة أن تفسحي قليلاً .

تعجبت ، المكان ليس بالضيق، حتى تفسح، ولكنها تضاحكت وقالت: تعالى بجواري هنا .

- لا.. سوف أجلس بجوارك في الجهة الأخرى.

نظـرت إلــى الحاجــة أمينــة" و"فاطمــة"، فـرأت ابتــسامة تعلــو وجهيهما، ثم هزة رأس من "فاطمة"، توحي بأن تمتثل للأمر.

لكنها أصرت أن تعرف لماذا، وسألته عن السبب، فالمكان ليس بالضيق.

قالت الحاجة "أمينة": هذا المكان كان يجلس فيه جده رحمه الله، حين تناول الطعام، و"محمد" لا يريد أحد أن يجلس مكان جده.

ابتسمت الأستاذة "منار" وقالت: حاضر يا "محمد".

أكبرته في نفسها، وشكرت الله لأن جده لم يقع من نفسه، وتمنت لو أن "عبد الرحمن" أمامها الآن، أو أنها تعرف مكانه، لطارت إليه، وطمأنت مخاوفه.

تزحزحـت مـسرعة، وجلـس "محمـد" بجوارهـا، تتبـادل الأسـئلة والإجابات مع "فاطمة" والحاجة "أمينة".

ولم تنس مداعبة "محمد" بين الحين والأخر، تضع لقيمات في فمه، وتخطف منه لقيمات، وتمسك يده حين تمتد علي شئ، فتنطلق الضحكات.

سرعان ما تآلفت "منار" مع الأسرة، أثارت جوا من المرح والسرور، كأنها تعرفهم ويعرفونها منذ زمن، حتى أنها سألت "محمد" وقال: أنا من يا"محمد".؟

- حضرتك الأستاذة "منار" ؟

- لا.. لا غلط .

تعجب "محمد"، وسكت.. لم يعرف ماذا يقول، لكنها قالت متضاحكة : أنا هنا صديقتك "منار"، أما في الفصل إسمي أستاذة "منار".

هز رأسه وهو غير مقتنع بما يسمع .

– أرني حجرتك يا "محمد".

هكذا قالت "منار" بعد الغداء، فهي تريد أن تعرف كل شئ عن حياته بسرعة، لأن الوقت بدأ يهاجمها وهي في شبرا ملكان.

اصطحبها "محمد" إلى حجرته، تفحصتها سريعا، وجدتها تطل على بستان فاكهة، يأتي منه خليط من عبق الزهور والفواكه.

ولكنها تعجبت، لم تر في الحجرة إلا سريراً ودولاباً به ملابسه، سألته: أليس عندك ألعاب يا "محمد"..؟

ابتسم وقال: عندي الكثير.

- أين هي..؟

- في حجرة بابا.

مازالت رائحة الزهور والفواكه تقتحم أنفها، ألهتها المكتبة الكبيرة التي على اليسار، كتب متناثرة هنا وهناك، يبدو أن "عبد الرحمن" لم يلمسها منذ زمن.

تصفحت عناوين الكتب سريعاً، حتى جاءت إلى الركن الخاص ب"محمد"، والذي فيه لعب ومجلات وقصصا الأطفال.

جلست على الأرض، وأمسكت بالمكعبات وقالت: تعالى نلعب معا، وسنرى من يركب المكعبات أسرع من الأخر.

شاركته اللعب، ضحكت كثيرا، كسرت كل الحواجز الذي بينها وبينه، أصبح الآن أرضا خصبة تستقبل كل ما تقوله هي.

ثم تفحصت مجلات الأطفال الكثيرة، عثرت على كشكول مغلف بعناية، تصفحت أوراقه، فإذا هي قصص مكتوبة بخط اليد، أدركت من ركاكته أنه ليس خط "عبد الرحمن"، فسألته: ما هذا يا "محمد" ؟

- قصصي التي أكتبها.
- أنت تكتب قصص..؟!.
- نعم ..

نظرت إليه في دهشة، وقالت: أتعرف أن تقرأ لي قصة منها.

- نعم.

ناولته الكشكول وقالت: اقرأ لي .

- ماذا تحبين أن أقرأ ما تحب أنت.
- سوف أقرأ لك قصة أحبها.

عبثت أنامله سريعاً بأوراق الكشكول، عثر على قصته، وبدأ يقرأ :

العصفور الحزين

" كان هناك عصفور صغير الحجم، يعيش مع أبيه وأمه.

وكل يوم كان الأب ينهر زوجته العصفورة، ويضربها، ويقول لها.. لماذا تنجبين ابنا صغيرا مثل هذا..؟.

كانت الأم تبكي، لأن ولدها صغير الحجم .

وذات يوم، قال لها زوجها.. اذهبي إلى والدك، لا أريد رؤيتك أنت وولدك الصغير.

حملت الأم ولدها العصفور الصغير، وذهبت تعيش مع والدها وأمها وأخيها، الذي هو خال العصفور الصغير.

وكبر العصفور الصغير في بيت جده، ولم ير أمامه غير خاله، فكان يناديه ويقول له بابا، لأنه لم يعرف والده، ولأن والده لم يسأل عنه أبداً .

وتمر الأيام وكبر العصفور، وعرف أن خاله ليس هو والده، فحزن حزنا شديدا، لأن والده حرمه من حنانه طول العمر، ولأن خاله وجده لم يقولوا له الحقيقة.

وطار العصفور بعيداً جداً، حتى وقف على شجرة بعيدة عن كل الأشجار، وليس عليها عصفور غيره، وقف يفكر ويفكر، هل يذهب للعيش مع والده القاسي، أم يظل مع خاله الذي يحبه".؟

كانت "منار" تتابع "محمداً " باهتمام، تدهشها ملامحه التي تتغير مع كل جملة، وصوته الذي يعلو وينخفض حسب الأحداث، ونبرات الأسى التي ختم بها كلماته.

تماسكت عن دموعها وسألته: أكمل القصة يا "محمد"

- لم يكمل جدي القصة .

- وماذا عن العصفور ؟

- مازال يفكر هناك على الشجرة وحيدا.

ذهبت "منار" بعقلها في أمر "محمد"، وتساءلت مع نفسها: لماذا اخترت هذه القصة بالذات يا "محمد"...

ثم اصطنعت التهليل والفرح، وقالت: أنا سعيدة بك يا "محمد"، سوف تصبح كاتبا مثل والدك "عبد الرحمن".

لم يعلق "محمد"، شعرت أن في عينيه أسئلة حائرة، خشيت أن تعجز أمامها.

عليها الآن أن تهرب، عليها أن تقطع عنه التفكير في شئ، حتى تقف على كل صغيرة وكبيرة في حياته، وقتها تستطيع أن ترتب له إجابة على كل سؤال.

لم تجد إلا أن تغير المكان فورا، رغم أن نفسها تتوق للجلوس في هذه الحجرة، وبجوار المكتبة.

سألته: أين أصدقاؤك يا "محمد"..؟.

- لي صديق واحد، سوف يأتي بعد قليل.

- من ..؟

- عمار..

- وعزة ، وعزوز ، ومعزوزة .

ضرب رأسه بكفه ضاحكاً، كأنه يعاقب نفسه لأنه نسيهم، ثم قال: هناك خلف المنزل .

- تعالى وعرفني بهم، هيا يا عصفور .

- جدي دائماً كان يقول لي يا "عصفور" .

هللـت "منـار" عنـد رؤيـتهم، وجلـست تقـدِّم لهـم الحـشائش معـه، وتسمع لـه عـن أصـدقائه القـدامى الـذي كـان يحـبهم جـداً، "حمـور ونوسة"، وكيف باعهما والده "عبد الرحمن".

علت نبراته بالحزن على فراق "حمور ، ونوسة"، احتارت "منار".. مـاذا تفعـل مـع هـذا العقـل الـذي لـم ينس مـا يحزنـه، ولـه فـي كـل مكان ذكرى أليمة .

ثم رأت "عماراً" قادماً إليهم، تنفست الصعداء، ثم قالت: أهلاً يا "عمـار"، صـديقك "محمـد" يحبـك جـداً، تعـال معنـا لنتجـوَّل وسـط الحقول، ولنلعب بالعصفور في الفضاء الواسع.

وسـاروا علـى الطريـق الترابـي وسـط الـزروع، تتـشابك أيـديهم ببعضهم، "محمد" في المنتصف، تسرع بهما إذا كان الطريق خالياً من المارة، وتهدئ من خطواتها كلما رأت سائر.

وقـف "محمـد" علـى قبـر جـده فـي الـذهاب والعـودة، قرأ الفاتحـة، فقرأت "منار" مثله .

وتمنـت لـو كـان الحـظ حالفهـا بـالجلوس معـه، والـدخول فـي أعماقه، حتى تنهل من خبرته في الحياة، خبرتـه التـي جعلـت مـن "محمد" إنساناً خرافياً بالنسبة لأمثاله.

عندما وصلوا على رأس الأرض، بدت على ملامحه علامات الأسى، لقد تذكَّر لهوه ولعبه مع جده والأصدقاء في هذا المكان.

خشيت عليه من ذكرياته هذه، فصاحت قائلة: ما بك يا "محمد"؟ لماذا لم تخرج العصفور من العلبة، وتطلقه في هذا الفضاء الواسع، ليطير مع إخوته العصافير..؟

نظر إليها برهة، وقبل أن يقول شيئاً ، لاحقه "عمار" قائلاً: أخرج العصفور يا "محمد"، لنرى ما يفعل مع إخوته في الهواء.

أسرع "محمد"، وفتح العلبة، وأطلق العصفور، وأمسك الريموت كنترول، وضغط على الزر الذي يجعله يعلو إلى أقصى درجة.

هلَّلت "منار" وقالت: أنت شاطر يا "محمد"، لقد سبقت العصافير كلها، اضغط على الزر اليمين، ثم الزر اليسار، اجعله يسبح كثيرا في هذا الجو الجميل".

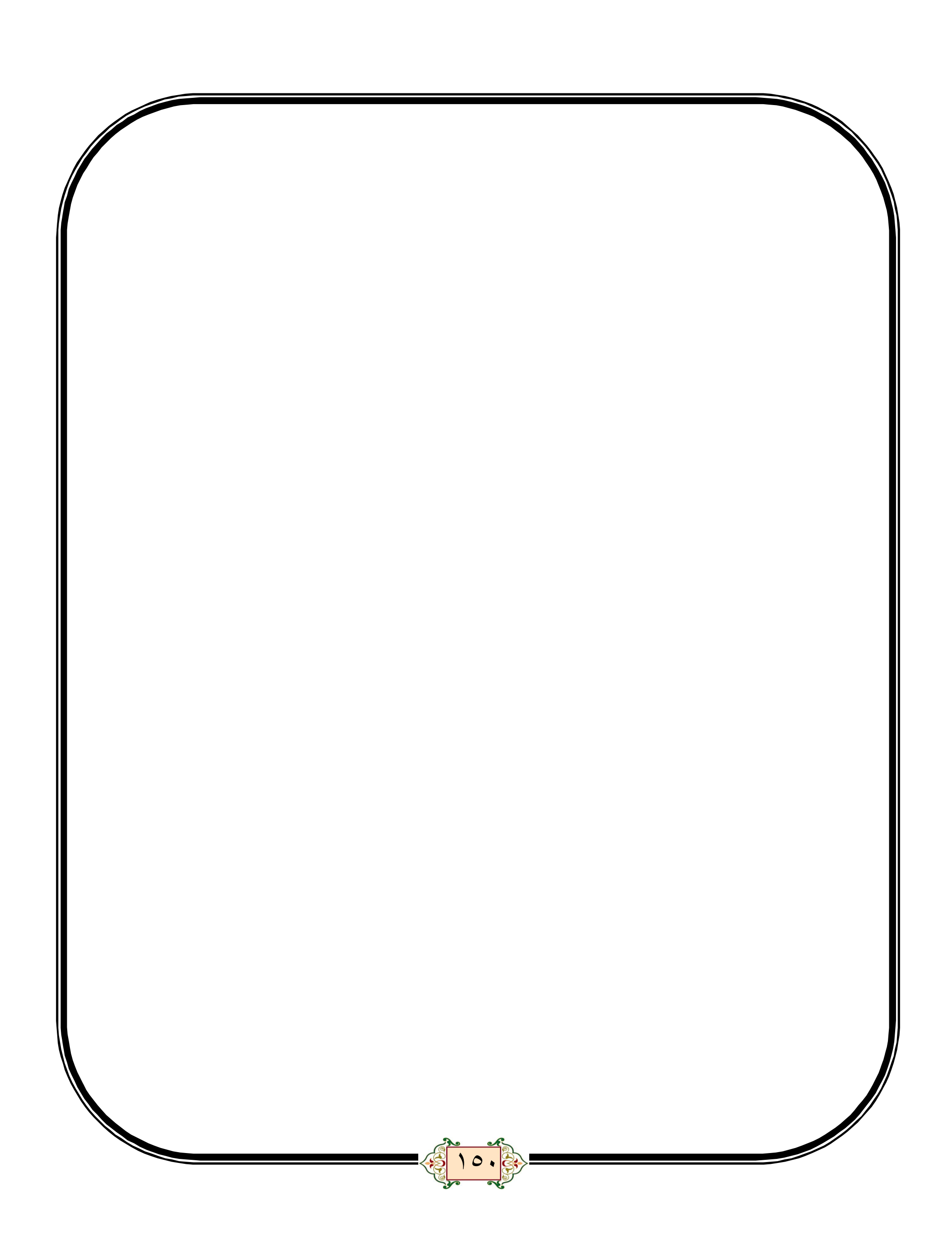
فعل "محمد" كما قالت، وهلَّل فرحاً كلما رأى العصفور يعلو، ثم ناول الريموت إلى "عمار" فأخذ يفعل ويهلَّل كما فعل "محمد"، وكذلك فعلت "منار".

خلقت "منار" جواً من المرح والسعادة، ثم أعادت العصفور إلى العلبة مرة أخرى، وسارت معهما حتى فرع نهر النيل الذي يمر

من الجهة الشرقية للقرية، وقفت تستمتع بهذا المنظر الخلَّاب، منظر الشمس وهي تتهيَّأ للمغيب، ثم همَّت بالعودة إلى المنزل.

رأت "منار" أن زيارتها هذه غير كافية، فلم تكسب منها غير كسر الحاجز بينها وبين "محمد"، وأنه مازال في حياته الكثير، لابد أن تقف على كل صغيرة وكبيرة، حتى تستطيع أن تعيده إليه ثقته في نفسه وفي المجتمع، وخصوصاً في "عبد الرحمن" وأسرته.





الحل العجيب

رغم تعب النهار، إلا أن النوم لم يطرق جفن الأستاذة "منار"، مازالت تتقلب على الفراش، تسرد بعقلها أحداث اليوم، تقف عند كل كلمة وكل حركة رأتها من "محمد" وأسرته، تفكِّر كيف تؤكد لـ "محمد" أن "عبد الرحمن" ليس والده، دون أن يفقد ثقته في أحد.

أتعبها الأرق والتفكير في الأمر، قامت من فراشها، أشعلت المصباح الكهربائي، وسحبت إحدى مجلات الأطفال من فوق منضدة كانت بجوارها، راحت تتصفحها، عسى أن يأتي النوم ويرحمها من التفكير.

رنت في أذنها كلمات "عبد الرحمن"، حين قال عن مشكلة "محمد": إذا عمَّت الأزمة هانت، واستعصت إذا كانت خاصة".

قالت "منار" بصوت خفي، كأنها تحدث "عبد الرحمن": نعم.. أعرف أن المشكلة خاصة به، ولذلك هو يرى نفسه العصفور

الحزين، الذي يقف وحيداً على الشجرة، في القصة التي حكاها له جده من قبل، ومازالت معلقة بذاكرته رغم مرور هذه سنوات.

والغريب.. أن جده كان يناديه بـ ياعصفور، يبدو أنه كان يمهد للأمر بهذه الحكاية.

سكتت برهة، ذهبت في تفكير طويل، ثم انتفضت مكانها، ونظرت يميناً ويساراً، كأنها وقعت على شيء ثمين، ولا تريد أن يراها أحد، ولم تعرف أن أمها تراقبها من فراشها المقابل، حيث أنها ترافقها النوم في الحجرة.

ثم قالت تحدث نفسها: ماذا لو قمت بتعميم كلمة عصفور، وأطلقتها على كل التلاميذ، ثم أكمل حكاية جده، وأوهم "محمداً" أن العصفور الذي كان يعيش على الشجرة وحيداً، أصبح له أصدقاء، يعيشون معه على الشجرة، ولم يعد وحيداً، ربما يعود "محمد" من حيرته، وتعود له ثقته بمن حوله.

هزَّت رأسها فرحة، واعتدلت للنوم، بعد أن عزمت أن تبدأ في تعميم كلمة عصفور على التلاميذ في الغد.

تنهدت أمها في ضجر، ثم سألتها: متى ننتهي من موضوع "محمد" و"عبد الرحمن" يا أستاذة..؟

ضحكت "منار" وقالت: مازال الموضوع طويل يا أمي.

- هل تذهبين مرة أخرى إلى شبرا ملكان.

- نعم.. واحتمال كل يوم لمدة أسبوع أو أسبوعين.

أطلقت تنهيدة أخرى طويلة في ضجر أشد، ثم قالت: يارب هون.

ضحكت "منار" ضحكة عالية، وقالت مداعبة أمها: والله عمل يا أمي.. والله عمل.

سحبت أمها الغطاء الخفيف عليها، وسكتت.

***

كلنا عصافير

في صباح اليوم التالي، دخلت الأستاذة "منار" الفصل، رمقت "محمد" بطرفها، فرأته يبتسم لها، ثم قالت: صباح الخير يا عصافير .

رد التلاميذ: صباح الخير يا أستاذة.

بدأت عملها، تكرر كلمة عصفور بين الحين والأخر، وتتعمد أن تنادي على التلاميذ قائلة: تعال يا عصفور محمود.. أسكت يا عصفور سعيد... انتبهي يا عصفورة هند...

بين الحين والآخر، كانت ترقب "محمداً"، علامات استفهام ترتسم على وجهه، كلما نادت على أحدهم بـ عصفور، تشعر أن هناك سؤالاً يتأرجح في عقله، لا يعرف كيف يرتبه.

لماذا تناديهم بـ عصفور.. ولم تناديني مثلهم..؟ رغم أنني عصفور قبلهم..؟

تركته بعض الوقت، كادت أن تخنقه الدموع، ثم التفت إليه فجأة وقالت: عصفور "محمد"..

لم ينتظر أن تكمل كلماتها، وانطلق قائلاً في لهجة سريعة: أنا عصفور.. أنا عصفور قبلهم.. جدي كان يناديني بعصفور.

ابتسمت وقالت : أنت عصفور كبير وقوى.. وعصفور شاطر.. وعندك عصفور جميل، تعالى واحكي لزملائك العصافير حكاية محمد والأسد .

سحبته من يده، حتى أوقفته بجوارها أمام التلاميذ، وقالت: عصافيري الأعزاء.. أقدم لكم العصفور الجميل "محمد"، يحكي لنا حكاية محمد والأسد، صفقوا له.

عاد التصفيق بهدوء "محمد" ونشوته، بل اكتسبه ثقة في نفسه من جديد، وبدأ يحكي.

قصّ "محمد" الحكاية، والتي كان يقوم فيها بدور البطل القوي، الذي هزم الأسد المفترس، ولقنّه علقة ساخنة.

اختارت الأستاذة "منار" هذه الحكاية بعينها، حتى تعيد إليه ثقته بنفسه.

وكان لها ما أرادت، عندما صفقت له بحرارة،، وتبعها التلاميذ بتصفيق طويل، شعرت بحركات الاعتزاز في لفتاته وملامح وجهه.

في هذه اللحظة، طرأ بعقلها سؤال.

كيف تعلن في المدرسة أن فصلها أسمه فصل العصافير..؟

سحبت لوحة بيضاء من دولاب خلفها، وكتبت عليها بالقلم الرصاص فصل العصافير.

ثم أعطتها إلى "محمد"، مع قلم "فلومستر" عريض، وطلبت منه أن يظلل الكلمتين باللون الأحمر.

وسرعان ما فعل "محمد"، وعلق اللوحة على الباب، واشتهر الفصل بهذا الاسم بعد ذلك.

ثم وقفت الأستاذة "منار" وقالت : العصافير الأعزاء، الآن سوف نلعب لعبة جميلة .

هللت التلاميذ فرحة، وسألتها: ما هي اللعبة يا عصفورة "منار".

- لعبة تنس الطاولة"

صاحت العصافير : لا نعرفها يا عصفورة منار.. أنا أسمع عنها.. أنا رأيتهم يلعبونها .

هكذا اختلفت الكلمات، إلا "محمد"، قال في لهجة مسرعة : أنا ألعبها يا عصفورة "منار".

صاحت الأستاذة "منار" وسألته: أتعرف لعبة تنس الطاولة يا عصفور "محمد"..؟

- نعم.. ألعبها جيداً .

- إذن هلموا يا عصافير إلى صالة تنس الطاولة.

في صالة تنس الطاولة، لعب العصفور"محمد" مع العصفورة "منار".

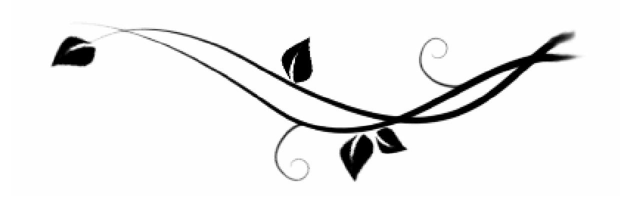
لم تكن هي على دراية كافية باللعبة، علمها قوانينها، كيف ومن أين تبدأ ضربة الإرسال، ومتى يكون الصح فيها والخطأ، وكيف تحسب النقاط..؟

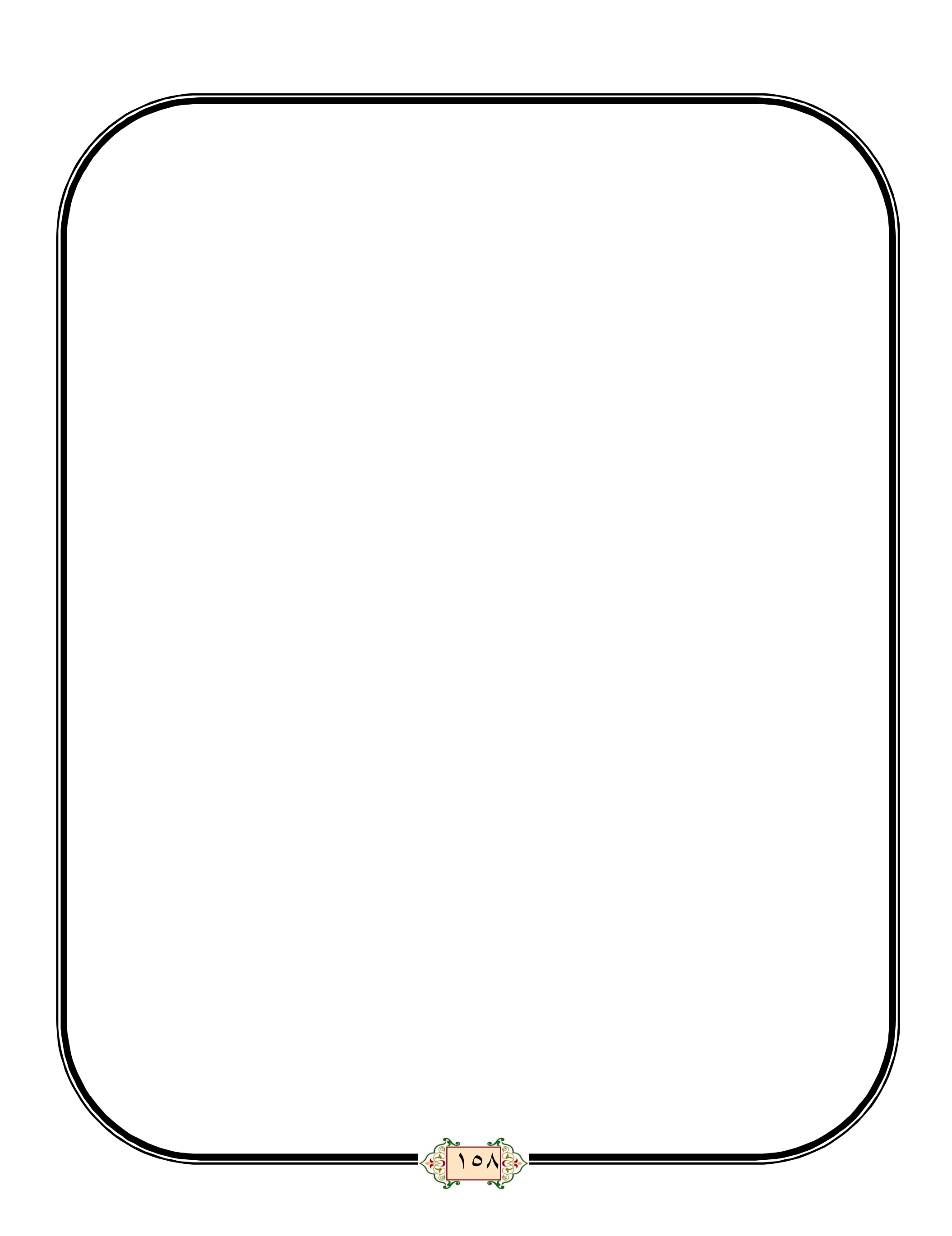
طارت "منار" فرحاً، ثم بدأ يعلِّم التلاميذ واحداً بعد الآخر.

رأت "منار" أن في هذه اللعبة فوائد كثيرة، أولها الحركة في حيز صغير جداً، وبدون مخاطر، وأنها تعتمد على التركيز وحسن التوقع.

ولذلك ... اهتمت بتعليم التلاميذ هذه اللعبة، وأصرت على قيام مسابقة لها، وتعميم اللعبة والمنافسة فيها مع المدارس الأخرى.

خصصت جزءاً من الوقت، في تدريب التلاميذ، مستعينة بـ "محمد" في هذا الأمر.





الخطوبة

الأستاذة "منار" فتاة رائعة الجمال، تجاوزت الثلاثين من عمرها بقليل ورغم جمالها هذا، لم يكتب لها الزواج بعد.

تعيش مع أمها، في شقة ليست بعيدة عن المدرسة، تتكون من ثلاث حجرات.

توفي والدها من سنوات، لها أخ واحد، يكبرها بسنوات قليلة، متزوج، ويعيش مع زوجته في مسكن آخر بالقرب منهما.

منذ أيام، بدأت أمها تستبشر خيراً، حينما رأت ابنتها تتحدث عن "محمد" وأسرته، وعن "عبد الرحمن" وإنسانيته المفرطة، وتكوينه الجسماني ولون بشرته، وملابسه الأنيقة وثقافته العالية.

ولذلك.. كانت تدعو الله في صلواتها أن يكون "عبد الرحمن" من نصيبها، عسى أن يقبل الله منها.

***

بعد يوم دراسي جميل، عاد "محمد" من المدرسة بصحبة "منار" إلى شبرا ملكان، والتي أصبحت رؤيته معه شيئاً مألوفاً لأهل القرية.

فإذا برجل يعترض طريقهما، على رأسه شال أبيض، يرتدي جلباباً أزرق، طويل القامة، قمحي اللون، تتسع عيناه وتضيق عن شرر غاضب.

قال: كيف حالك يا "محمد".

لم يرد "محمد"، واختبأ في الأستاذة "منار".

قالت ومازال يملأها الجزع منه : الله يسلمك.. لكن من أنت..؟

- أنا محجوب أبو "محمد"... والمحكمة سوف تحكم لي قريباً، ويأتي "محمد" إلى منزل أبيه.

رد "محمد" وقد انتابته بعض الشجاعة: أبي "عبد الرحمن".

قهقه "محجوب" وقال: المحكمة سوف تحكم بعد شهر واحد.

قبضت "منار" على كف "محمد" جيداً، سارت به هاربة من أمام "محجوب"، الذي مازال غارقاً في قهقهاته، تفكر.. كيف تهدئ من نفس "محمد" المضطربة..؟. وما هو الأثر الذي سوف يتركه هذا الموقف في نفس "محمد".. ؟

في المنزل، كانت الحاجة أمينة" تجلس كعادتها في الصالة، على الحصيرة الكبيرة.

جلست "منار" بجوارها، بعد أن سلمت عليها.

لاحظت الحاجة أمينة" تغيراً على وجه "محمد"، رغم أن الأستاذة "منار" حاولت أن تتضاحك معه، إلا أنه لم يستجب لها.

خرجت "فاطمة" من المطبخ، جلست بجوار أمها من الجهة الأخرى، ثم سألته: ما بك يا "محمد"..؟

اندفع قائلاً : الرجل الذي يقول إنه أبي، اعترضني أنا وصديقتي "منار".

لم يقل أكثر من هذا، لقد شهقت الحاجة أمينه، وضربت "فاطمة" صدرها بكفها.

مرت لحظة صمت، أدركت "منار" أن الأمر صعب جداً على هذه الأسرة.

تبادلوا النظرات، ثم سألته "منار": هل تحب هذا الرجل يا "محمد"..؟

- لا .

- حتى لو كان أبوك حقاً ؟

- أبي "عبد الرحمن".

- افرض أنه أبوك ويريد أن يأخذك لتعيش معه، هل توافق..؟

سكت برهة، نظر فيها إلى جدته وأمه، ثم قال: وماذا عن جدتي وأمي وأبي "عبد الرحمن"..؟.

- لا شأن لك بهم.. ولا شأن لهم بك، حتى أنا.. لن تران بعد اليوم.

ارتمي في على صدر جدته، ثم صدر أمه، فاحتضناه بشدة، وبكت "فاطمة" وهي تقبل يده ورأسه وكل ما يتاح لها منه.

ثم قال: لا أريد الذهاب معه.

- حتى ولو أتي لك بألعاب كثيرة .

- أبي "عبد الرحمن" يأتي بالكثير.

مرت لحظات صمت، حاولت "فاطمة" أن تسيطر على دموعها، ولكنها لم تفلح، فأطلقتها.

أما "منار" راحت تفكر.. هل سنحت الفرصة الآن.. هل تسوق إليه الحقيقة في هذه اللحظة..؟ هل يقبل أن نقول له إن "عبد الرحمن" ليس والدك، وأن محجوباً هو والدك الحقيقي ؟

أرادت الحاجة "أمينة" أن تقطع الصمت، وتؤجل الأمر إلى أن يأتي "عبد الرحمن" فمدت يدها تحت الكنبة، سحبت ورقة مطوية،

ناولتها إلى "منار" وقالت: هذه الورقة أتي بها الخفير من ساعة تقريباً، أنظري ماذا بها يا أستاذة..؟

فتحتها "منار" تغيرت ملامحهما وهي تمر بنظراتها على السطور، ثم طوتها وأعادتها إليها مرة أخرى، وقالت: حينما يأتي "عبد الرحمن" سوف يقول لكم ما فيها.

أثارت كلماتها وتغير ملامحها فضول الحاجة أمينة"، فألحت عليها أن تخبرها بأمر هذه الورقة.

رفضت "منار" أكثر من مرة، ثم أخبرتها بعد إلحاح طويل، قائلة: هي إعلان من المحكمة عن ميعاد الجلسة الخاصة بـ "محمد" و"محجوب".

شقهت "فاطمة" بشدة، وقالت: هل وصلت أنك تطلب "محمد" عن طريق المحكمة يا "محجوب" !

نظر "محمد" إلى وجوههن، شعر بالحزن يمزق قلوبهن، فقال: لا تخافي يا أمي.. لن أذهب معه أبدا، لن أتركك أنت وجدتي وأبي "عبدالرحمن" وصديقتي العصفورة "منار".

وضعت وجهها في وجهه، وقالت بصوت هامس: دعه يا "محمد" يفعل ما يشاء .. ويقول أنه أبوك .. لا ترد عليه أبداً.

- لكن... أنا حائر... لماذا يقول أنه أبي..؟

- لا تحتار يا "محمد"... هو أبوك فعلاً ، ولكنه لم يسأل عنك أبدا، و"عبد الرحمن" خالك الذي رباك، وأحضر لك كل تتمناه، فمن يستحق أن تعيش معه..؟

تردد لحظة، نظر فيها إلى جدته وأمه مرة أخرى، ثم قال: أبي "عبد الرحمن".

هللت "منار" بصوت عال، افتعلت السعادة، أرادت أن تختلق شيئاً من المرح، وغمزت إلى "فاطمة" بعينها، فهمت ما تريده "منار"، فتغلبت على دموعها وقلقها، واصطنعت التهليل هي الأخرى، وكذلك الحاجة "أمينة"، فصفق "محمد" فرحاً لفرحهن.

وكاد أن يقول شيئاً، لكن "منار" لاحقته، خوفاً من أن يسترسل في أسئلته وقالت: لك عندي مفاجأة كبيرة .

- ما هي..؟

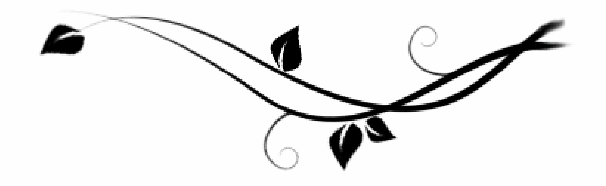
- ماذا لو قبلت دعوتي غداً الجمعة، لنقضي يوماً جميلاً في الملاهي والمنتزهات..؟

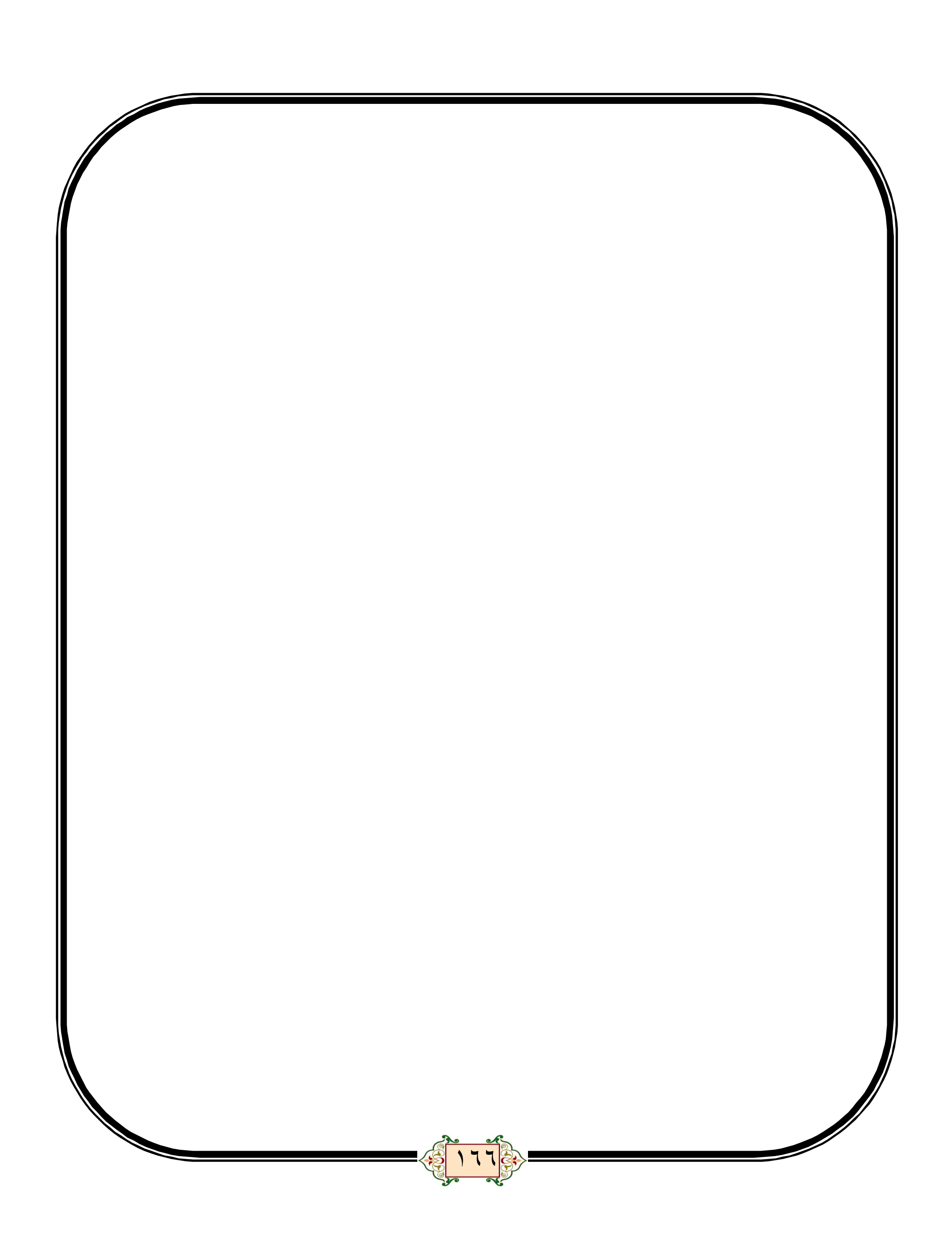
لكن جدته قالت: أنا اشتقت لرؤية والدتك، ولكن أنت تعرفين أنني لا أتحرك كثيراً.

نظرت إليها وقالت: منذ أن توفي والدي ولم تخرج إلى الشارع إلا للضرورة.

- تعتبرها ضرورة .

ولم تكن إلا أيام، وتحقق حلم الأسرتين، وتمت خطبة "منار" إلى "عبد الرحمن"، بعد أن بارك "محمد" زواجهما.





عيد ميلاد محمد

رغم أن الأستاذ "أحمد المحامي" طمأن "عبد الرحمن"، وقال له أن المحكمة سوف ترفض الدعوة المقامة من "محجوب"، طالما أن "محمداً " لا يريد العيش مع والده.

إلا أن "عبد الرحمن" لازال قلقاً، خوفاً على أمه وأخته، فكلاهما لا تستطيعا العيش بدون "محمد"، وكذلك هو، لا يتصور المنزل بدونه.

لاحظت "منار" القلق على وجه "عبد الرحمن"، فقالت: أشعر بك.. ماذا قال لك المحامي..؟

تنهد ثم صارحها بالأمر، فقالت: لم القلق و"محمد" أخبرني أكثر من مرة بأنه سوف يعيش معك، ويرفض والده تماماً.

- نعم.. هو يقول الآن.. لكن هل نضمن أن يقول ذلك في المحكمة.. أم يغير رغبته..؟

سكتت "منار"، لقد بدا عليها الحيرة هي الأخرى، ثم قالت: عندك حق.. مثل هؤلاء يغيرون رغبتهم في لحظة.

قررت "منار" تأجيل البدء في كتابة رسالة الماجستير، حتى ترى حكم المحكمة في هذه قضية "محمد".

ولم لا..؟ و"محمد" بالنسبة لها باباً لسعادتها، وتحقيق أمنياتها، وليس من المعقول أن تخذل خطيبها فيما يحب.

بدأت تفكر، أي طريقة تضمن بها بقاء "محمد" مع أمه وجدته و"عبد الرحمن"، دون أن يغير رأيه أمام المحكمة..؟

تلك هي مهمتها في هذه المرحلة.

جلست مع "محمد" في حجرة "عبد الرحمن"، هذا هو المكان الذي أصبح محبباً إلى قلبها، ناولته قلماً جميلاً، مع كراسة كبيرة أوراقها متعددة الألوان.

فرح "محمد" بهما، وسألها: ماذا تريدين أن أكتب في الكراسة يا صديقتي..؟

- أكتب أجمل الحكايات التي تحبها يا عصفور.

ودون أن يفكر، فتح الكراسة، وكتب في منتصف السطر الأول عنوان الحكاية بخط كبير " العصفور "الحزين".

نظرت إليه وقالت:

- لماذا اخترت هذه الحكاية يا عصفور..؟.

- أحبها جدا يا صديقتي.

كتب "محمد" الحكاية كاملة، لم يزد أو ينقص حرفاً مما كتبه من قبل في الكراسة القديمة.

ثم طلبت منه أن يقرأها عليها، فقرأها، وتوقف عند النهاية التي توقف عندها جده.

فسألته: أكمل الحكاية يا "محمد".

– جدي لم يكمل بعد.

سكتت الأستاذة "منار" برهة، لمعت في رأسها فكرة رائعة، وقالت في نفسها " كم أنت عظيم أيه الجد ! .. نعم.. عظيم حقاً.. لقد أهديتنا خيوط الحلول لكل مشكلة، ثم تركتنا نبحث فقط.. ما أعظمك أيها الرجل".

ثم نظرت إلى "محمد" وقالت: أتعرف لماذا لم يكمل جدك الحكاية..؟

- يريد من أن تكمل القصة.

- كيف..؟

- ماذا تفعل لو أنت مكان العصفور..؟

سكت برهة، ثم قال: لن أذهب مع أبي، وأعيش مع خالى الذي يحبني وأحبه.

هللت "منار" وقالت: هذا ما يريده جدك يا "محمد".

– ولذلك.. كان يناديني بـ بالعصفور.

– نعم .. نعم... هيا أكمل أنت القصة.

– ماذا أكتب يا صديقتي العصفورة..؟

– أكتب يا محمد.

" عندما طار العصفور إلى الشجرة البعيدة، ووقف عليها يفكر وحده، نظر أصدقاؤه العصافير حولهم، فلم تجده، قالوا.. أين العصفور الجميل.. أين العصفور الجميل..؟

وذهبوا جميعاً يبحثوا عنه في كل مكان، لأنهم يحبونه جداً، حتى وجدوه يقف على الشجرة، فسلموا عليه، وسألوه ما بك يا صديقنا الجميل..؟

حكى لهم حكايته وقال: أنا حائر، هل أذهب إلى أبي الذي لم يسأل عني، أم أعيش مع خالي الذي أحبه..؟

ضحكت العصافير وقالت: أنت عصفور جميل وذكي، ويجب عليك أن تشكر خالك الذي يحبك جداً، ويأتي لك بالهدايا الكثيرة، وتعيش معه، ولابد أن تناديه دائماً وتقول له: يا أبي العزيز، ولا تذهب إلى والدك، لأنه لم يسأل عنك أبدا".

ما رأيك يا "محمد" في هذه النهاية..؟

هكذا قالت "منار".

سألها: هل كان جدي يريد أن أكتب النهاية هكذا..؟

- نعم.. نعم.

بدأت "منار" في ترسيخ هذا الاعتقاد في نفسه.

فاصطحبته إلى سوق المدينة لبيع القماش، واشترت أمتاراً من القماش بيضاء اللون، ثم اشترت عدداً من ألوان "البوية"، والتي يستخدمها الخطاط، و"الفرش" أيضاً.

وفي منزل عبد الرحمن، أمسكت المقص، وبدأت تقص منه بمساعدة "محمد"، أحجاماً متساوية أحياناً، وأخرى مختلفة، ثم رسمت عليها خطوطاً بالقلم الرصاص.

ثم هلل "محمد" وقال: إنها أجنحة عصافير.. ورءوس عصافير أيضاً .

- نعم.. أنت سوف ترسم مثلها، وتقوم بالتلوين معي أيضاً.

- نعم.. وسوف يساعدنا صديقي "عمار"، لقد أصبح ماهراً في مهنة الطباعة.

- رائع جداً، كيف حاله الآن، أنا لم أره منذ فترة طويلة.

الآن.. تذكرت "منار" صديقه "عمار، فهي لم تره منذ وقت طويل.

منذ أن أخذه "عبد الرحمن" ليعمل في مطبعة لطباعة القماش، لم يأت لزيارة "محمد" إلا في يوم الجمعة، يتناول معه الغداء، ويحكي عن حبه لهذه المهنة الجميلة، والتي تعلم فيها الكثير من المراحل المتعددة للطباعة، مثل خلط الأوان ببعضها، ليحصل على لون مميز.

وأعرب " أكثر من مرة عن أمله في أن يكون مسئولاً عن مطبعة للقماش، لأنه أحب هذه المهنة الجميلة.

وفي اليوم التالي، وبعد الغداء، بدأ "محمد" "وعمار" في تلوين القماش تحت إشراف أستاذة "منار".

أثبت "عمار" مهارته في خلط الألوان، ليحصل على اللون المطلوب، والذي تريده "منار"، كما أثبت "محمد" استيعابه الشديد

لكل الخطوات، فخرج القماش على هيئة أجنحة عصافير رائعة الجمال، ثم علقوها في الشمس لليوم التالي.

***

طوال الأسبوع، كانت التلاميذ تترقب عن المفاجأة التي أعلنت عنها الأستاذة "منار"، الكل كان يفكر.. ما هي المفاجأة...؟

وقبل انصراف اليوم الأخير من الأسبوع، وقف التلاميذ حولها يسألونها.

ابتسمت وقالت: غدا الجمعة.. سوف نذهب في رحلة .

هلَّل التلاميذ فرحاً، وسألوها: أين سنذهب يا عصفورة "منار".؟

- ما رأيكم لو ذهبنا في رحلة إلى قرية شبرا ملكان، لزيارة العصفور "محمد عز الدين" في منزله، لنحتفل معه بعيد ميلاده، ونشاركه ألعابه الجميلة، وزيارة مكتبة والده، والسعي معه بين الحقول، والجلوس على شاطئ النهر.

صاحت التلاميذ، وهنأوا العصفور "محمد" بعيد ميلاده، ثم ودعوه للقاء الغد.

وفي اليوم التالي، وبعد صلاة الجمعة، وصل أتوبيس الرحلة إلى قرية شبرا ملكان.

رحّب بهم "عبد الرحمن" وأسرته و "محمد"، وقضوا وقتاً ممتعاً في المنزل، شاهدوا مكتبة "عبد الرحمن"، وأعجبوا بالركن الخاص بالعصفور "محمد"، والذي فيه مجلات وكتب أطفال كثيرة، وألعابه المتعددة.

ثم اصطحبهم "محمد" إلى أصدقائه خلف المنزل، (عزة ، وعزوز ، ومعزوزة)، تحت أشجار الجوافة وأنواع أخرى من الفاكهة، لعبوا حولهم، وقدموا لهم البرسيم.

وبعد ساعة، ذهبوا جميعا في رحلة وسط الحقول.

كل واحد يمسك في كف الآخر، يسيرون في صفين متجاورين، يحدثون لغطا طوال الطريق، أمامهم "عبدالرحمن" يسير بجوار "منار"، وفي نهاية الصفين يسير بعض أمهات الأطفال.

وعندما وصلوا إلى رأس الأرض، وقفت "منار" عند جذع شجرة التوت، حولها التلاميذ.

أشارت إلى "عمار"، جاء مسرعاً من أخر الجمع، يحمل كيساً كبير الحجم، قدمه لها،أخرجت جناحين من القماش، ربطتهما في ذراع "محمد"، ثم ألبسته غطاء الرأس، فاستبان أمامهم هيئة العصفور.

علت الصيحات والتهليلات، وتزاحم التلاميذ عليها أكثر، كل يريد، يرتدي مثل "محمد".

" وأنا يا عصفورة "منار"... وأنا يا عصفورة "منار.."

هكذا كانت النداءات، الكل يريد أن يلحق برداء له.

ساعدها "عبد الرحمن" في تعليق الأجنحة وغطاء الرأس، حتى أصبح التلاميذ عصافير تسير على الأرض.

لمعت الألوان الزاهية في ضوء الشمس الذهبي، فاستبانت للناظر طيورا تمشي، يدورون حول بعضهم البعض، يجرون يمينا ويسارا، يغنون ويمرحون.

شردت "منار" بعقلها، لمعت في رأسها فكرة.

ماذا لو قام "محمد" بسرد حكاية العصفور الحزين الآن..؟

ماذا لو أصبحت الحكاية أشبه بتمثيلية، يقوم الأطفال بأدائها الآن.؟

اهتزت فرحاً، ثم نادت على العصافير، فسرعان ما التفوا حولها.

طلبت أن يجلسوا على الأرض، ليسمعوا "محمد" وهو يحكي حكاية العصفور الحزين.

وقف "محمد" يحكي، الجميع ينصت له باهتمام، كأنهم يسمعونها لأول مرة.

حتى اقترب من النهاية، همست "منار" إلى "عبد الرحمن أن يبتعد قليلاً عن الجمع، ففعل دون أن يعرف ماذا تريد.

ثم صفق الأطفال بعدما سمعوا الحكاية كلها، والتي قصها "محمد " بنهايتها السعيدة التي وضعتها أستاذة "منار"، لقد قامت بتلقينها إياه مرات كثيرة، حتى حفظها عن ظهر قلب.

ثم سألته : ماذا قالت العصافير للعصفور الجميل يا "محمد"..؟

- قالت له اذهب إلى خالك الذي يحبك، وقل له أحبك يا أبي.

- أين خالك..؟

نظر إلى "عبد الرحمن" دون أن يقول شيئاً ، يبدو أنه يفكر.

لكن "مناراً" أرادت أن تقطع عنه التفكير، فعلت بصوتها.

- هيا افعل يا عصفور كما قال لك الأصدقاء.

اندفع "محمد" نحو "عبد الرحمن" قبل تفكير، فأخذه في صدره، وراح يقبّل فيه بقوة.

والغريب..أن الأطفال أسرعوا خلفه، وفعلوا كما فعل "محمد"، وارتموا في أحضان "عبدالرحمن"، فقبّلهم واحدا بعد الآخر.

بهذا المشهد العبقري من "منار"، أوصلته عملياً بأن عبد الرحمن هو خاله وليس أبيه، بعدما أوصلته له من قبل شفهيا، من خلال الحكاية.

وبعد قليل، أرادت "منار" أن تزيد من فرحتهم، نادت فيهم، فلبوا نداءها مسرعين كالعادة، والتفوا حولها.

أخرجت العصفور من العلبة، وأطلقته في الهواء، وسط صيحاتهم وهتافهم، يفردون أجنحتهم، كأنهم يطيرون مثله.

"منار" تتحكم فيه "بالريموت كنترول، تعلو مرة، وتنزل به حتى رءوسهم مرة أخرى، فتعلو الصيحات والهتافات، يتقافزون... يريدون الإمساك به.

وقبل المغرب بساعة، عادوا إلى المنزل مرة أخرى، بدأ الجميع في تزيين سقف الصالة الواسع، منهم من يصعد السلم ليعلق الزينة، ومنهم من ينفخ البالونات، وآخر يقوم بربطها.

المنزل خلية نحلة لا تهدأ من الحركة، الكل يعمل بحب ونشاط، حتى تزينت الصالة بأوراق الزينة والبلونات، في وقت قصير جداً.

ثم التف الجميع حول منضدة كبيرة، وضعوها في المنتصف، عليها تورتة مزينة بالشموع، وغنوا نشيد عيد الميلاد، وعلت الصيحات والتهليلات، ثم قدم الكثير منهم هديته إلى "محمد".

علا صوت "منار" سألتهم: ماذا تقولون لصديقكم اليوم يا عصافير.

صاحت العصافير قائلة: نحن نحبك يا عصفور... نحن نحبك يا عصفور .

صفقت "منار"، فصفق الجميع، بعد أن رددوا كلمات الحب.

وأخيراً .. جاء نفير الأتوبيس، لقد حان موعد مغادرة قرية شبرا ملكان.

وقف "محمد" بجوار "عبد الرحمن" عند باب الأتوبيس، ودّع أصدقائه، وودعته "منار" بقبلة وقرصت وجنته، على أمل لقاء الغد في المدرسة.



المحكمة

جاء اليوم الذي ينتظره الجميع، والذي يخشاه "عبد الرحمن" وأسرته وخطيبته أيضاً، يوم سوف يكون فيه "محمد" صاحب القرار، هل سيخذلهم ويختار العيش مع والده .. أم يسعدهم بالبقاء معهم..؟

رغم أن "مناراً " هيأته لهذا اليوم جيداً، ولقنته ما يقول وما يفعل، إلا أن قلق عبد الرحمن أثار فيها الخوف، لأن مثل "محمد" متقلب المزاج والرأي أيضاً.

أما عن "محمد"، لقد انتابه القلق لهذا الاهتمام الزائد، وهذه الكلمات ومن هذا المكان المزدحم، الناس فيها ذهاباً وإياباً بشكل سريع، صراخ امرأة هنا، وبكاء طفل هناك.

جرت رعشة في جسده، شعرت به "منار"، احتضنته أمه "فاطمة"، التي لم تتوقع أن يأتي بها "محجوب" إلى هذا المكان.

وبينما هم كذلك، وقبل الدخول إلى قاعة المحكمة، فإذا بالمفاجأة..

الأستاذ "عبد الخالق" مدير المدرسة وبعض المدرسين، ومعهم خمسة تلاميذ من أصدقاء "محمد".

فرح "محمد"، سار فيه شئ من الهدوء والطمأنينة، هرول إليهم، وسلموا عليه، وقال له التلاميذ: نحن معك يا عصفور... نحن نحبك يا عصفور".

كانت لفتة رائعة من مدير المدرسة على الأمر، أصرّ أن يحضر مع عدد من أصدقاء "محمد" المقربين، وعدد من المدرسين الذين يحبهم "محمد"، ليكونوا بجوار أفضل تلاميذ المدرسة، في هذه اللحظة الحاسمة من حياته وحياة أسرته.

ثم مفاجأة أخرى، لم تخطر على بال أحد.

لقد رأوا "محمداً " يترك وقفتهم، يهرول بعيداً عنهم، في اتجاه العربات، يرتمي في أحضان القادم من بعيد، صاحب الجسد الضخم، عريض المنكبين.

يالها من مفاجأة.. إنه صديقه الحميم "عمار".

ماذا أتي به...؟ لقد استأذن من صاحب المطبعة ليكون بجوار صديقه في هذه اللحظة.

لكن ..ماذا به..؟ يبدو عليه الإرهاق.. هل قطع هذه المسافة الطويلة سيرا على الأقدام.

أخذه "عبد الرحمن" في أحضانه، وشكرته "منار"، وسلم عليه الجميع، ثم دخلوا إلى قاعة المحكمة مع المحامي.

مرّ القاضي سريعاً بنظراته على الجالسين أمامه، تعجب لهؤلاء الأطفال الذين في صدر القاعة، ظن أن جاءوا مع أمهم، أو أن لهم دعوة ما، ربما تكون نفقة، أو ضم حضانة.

نادي الحاجب على اسم محجوب، ثم وقف المحاميان، تحدث الأول ثم الآخر، كل واحد منهما يستدل بآيات من القرآن مرة، ومن مواد القانون مرة أخرى، ثم طلب القاضي أن يقف محجوب في جهة، و"فاطمة" في جهة أخرى، ثم نادى على "محمد".

أثارت هيئة "محمد" فضول القاضي، تأمله جيداً، ثم سأله: من اشترى لك هذه البدلة الجميلة يا "محمد"؟

- أبي عبد الرحمن.

نظر القاضي أمامه في الأوراق متعجباً، ثم قال: ليس في القضية اسم "عبد الرحمن"، أتقصد "محجوب" هذا..؟

قال "محمد": لا.. أبي "عبد الرحمن".

- أين هو..؟

أشار "محمد" إلى :عبد الرحمن"، الذي قام مسرعاً، ووقف أمام القاضي.

كان "عبد الرحمن" يرتدي بدلة ذات لون زيتوني مثل "محمد" تماماً، ونفس القميص الأخضر والحذاء الأسود.

أعجب القاضي بهيئته، وسأله: ما صلتك بـ "محمد".

- أخو أمه.

- ماذا تعمل..؟

- موظف شئون اجتماعية.

نظر القاضي إلى "محجوب"، فرآه يرتدي جلباباً أزرق، على رأسه طاقية صوف، عرف من هيئته أنه مزارع بسيط.

فسأله القاضي: ماذا تريد يا محجوب.؟

- أريد ابني ليعيش معي.

نظر القاضي إلى "محمد" وقال: ما رأيك يا "محمد".. هل تريد الذهاب لتعيش معه والدك..؟

وقبل أن يجيب بشئ، طلب منه أن لا يقول رأيه الآن، وأعطاه وقتاً ليفكر.

كانت لحظة صمت، تفحَّص القاضي وجوه الجالسين، وجد الأطفال الخمسة، ينظرون إلى "محمد" في قلق، منهم من يضع أصبعه في فمه، ومنهم من يضع يده على قلبه.

"منار" تكاد تقفز من مقعدها، تريد أن تصرخ، علامات الخوف جلية على وجهها.

مدير المدرسة والمدرسين، الكل يسلط عينيه على "محمد".

أدرك القاضي أن هناك أمر ما وراء هؤلاء الحضور.

فنظر إلى "عبد الرحمن"، رآه يرتعد، تنهمر الدموع من عينيه، كأنه مقبل على موت حقيقي.

سأله القاضي: ما بك يا أستاذ..؟

- هل تسمح لي بالحديث سيدي القاضي..؟

- تفضل.

- محجوب ترك زوجته وولده وهو طفل رضيع، بحجة أنه مريض، صاحب احتياجات خاصة كما يقولون، تخلَّى عن مسئولية الأبوة، فلم ير الطفل غيري لينسب إليه هذا اللقب ، دون أن يعرف الحقيقة، لأن والده لم يسأل عنه، ولم يحاول أن يراه ولو مرة، حتى لا يتكفَّل بتربيته وعلاجه واحتياجاته، واليوم يريد أن

يضمه لحضانته بعد أن أصبح كما ترى حضراتكم، يريد أن يحرم أمه وجدته من فلذة كبدهما، ويريد أن يحرمني أنا من الميراث الوحيد الذي ورثته عن والدي.

نعم... "محمد" هو ميراثي عن والدي الذي أوصاني به، فكنت له الأب بعد أن تخلى عنه والده، والأخ والخال والعم، كنت له كل شئ، وفعلت من أجله كل ما أستطيع، وحرمت نفسي من الزواج لأجله، حتى اقتربت من الأربعين دون زواج، وأصبح "محمد" كما ترون سيدي.

انهمر في البكاء، أشار له القاضي بالهدوء، والعودة إلى جلسته.
غادر وقفته أمام القاضي، وراح يمسح دموعه على مقعد آخر في نهاية القاعة، غير المقعد الذي كان يجلس عليه بجوار "منار".

ثم نظر إلى محجوب وسأله: ما رأيك يا محجوب..؟

- كل ما يحزنني أنه يقول له يا أبي، ولم يقل لي أنا.
- هل حاولت رؤيته، أو منعوك عن رؤيته.
- الحقيقة لا.

التفت القاضي إلى "محمد"، وسأله: هل تحب أن تذهب إلى أبيك، أم تذهب إلى أمك..؟

سكت " محمد" لحظة، نظر فيها إلى محجوب، لم يعرف أحد تفسيراً لهذه النظرة، هل هي نظرة استئذان.. أم نظرة انتقام، لأنه لم يحاول أن يسأل عنه، تتعلق القلوب بشفتيه.

ثم قال: أريد أن أعيش مع أبي.

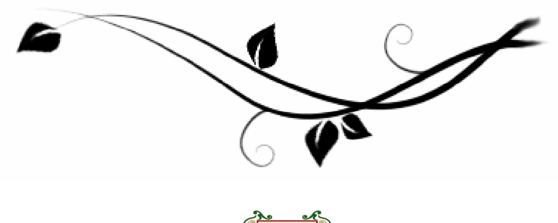
علت القاعة بالهمهمات، نزلت علي الجميع خيبات الأمل، توقفت القلوب في الصدور، فدق القاضي على المنضدة بشاكوشه، ثم قال: تفضل.. اذهب إلى أبيك.

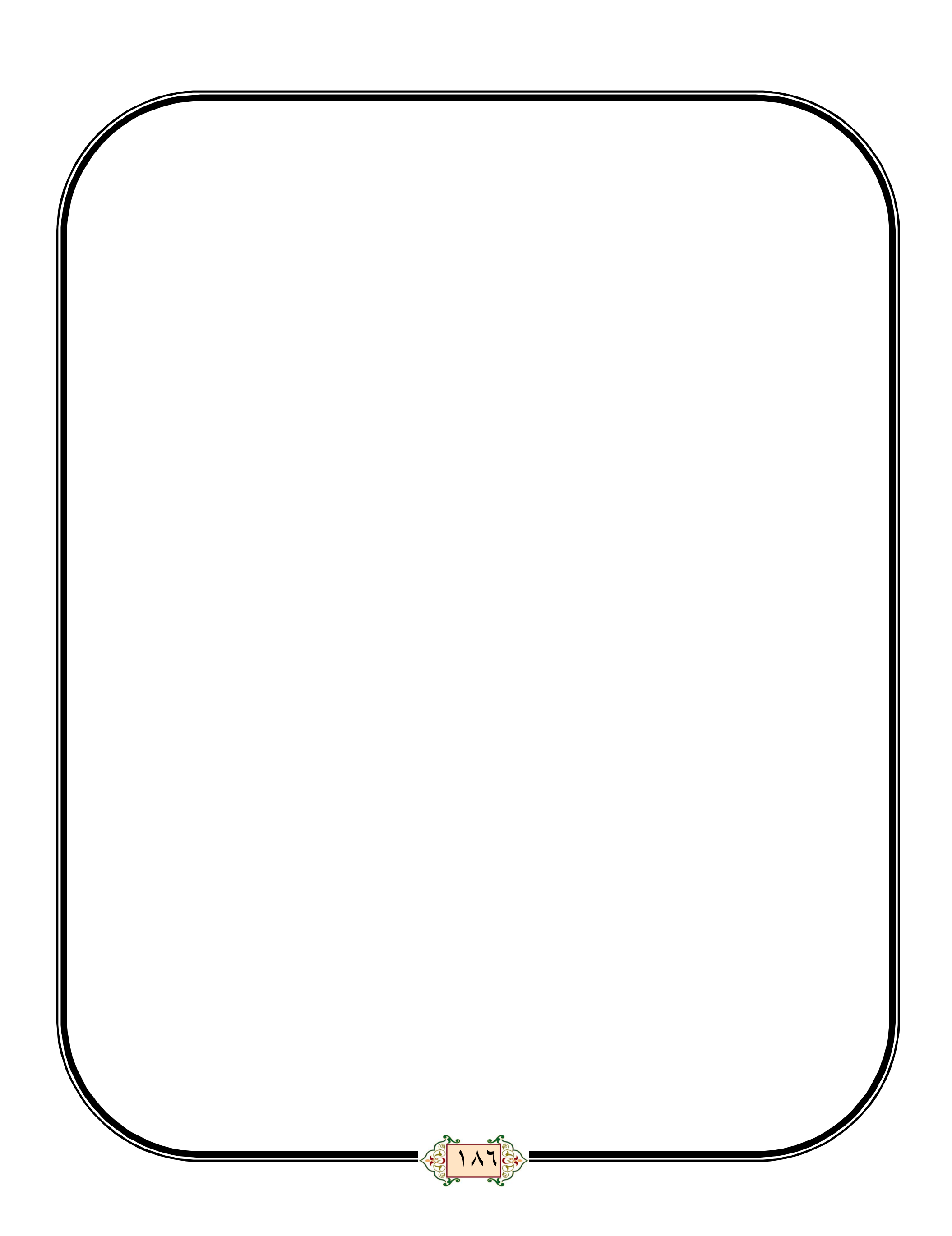
انطلق "محمد" مسرعاً إلى "عبد الرحمن" في آخر القاعة، ارتمي في صدره، ومسح دموعه.

علت القاعة بآهات الراحة، وكادت أن تعلو بالهتافات، لكن القاضي أسكتها بدقات من شاكوشه وقال: والدك محجوب.

قال محمد: والدي "عبد الرحمن".

ابتسم القاضي ورفع الجلسة.





سنوات من الاجتهاد

تزوج "عبد الرحمن" من "منار"، في ليلة لن تنس، حضرها فصل العصافير، أحاطوا "مناراً" طوال الحفل، كأنهم حور من الجنة، غني لها من يغنى، ورقص لها من يرقص، ولم يتركوها إلا أمام مسكن الزوجية في شبرا ملكان.

وتفوق "محمد" في امتحانات التربية الفكرية، جاءه "عمار" ليهنئه بهذا الإنجاز، لكنه فوجئ به صامتاً، شارداً بعقله عنه، يبدو أنه يفكر في شئ مهم.

سأله في لهفة: ماذا بك يا صديقي، لم أر الفرحة في عينيك، رغم تفوقك هذا العام.

تنهد "محمد" ثم قال: الفرحة الكبيرة لم تأت بعد

- كيف وقد أسعدت الجميع بتفوقك اليوم.

- هناك شخص لم أسعده بعد يا صديقي.

- من هو..؟

حملق "عمار" في وجه صاحبه متعجباً.

لكن "محمد" قال: لابد من الحصول على شهادة تعليمية أعلى من شهادة مدارس التربية الفكرية .

- هل ستذاكر من جديد..؟

- نعم.. لأنني وعدت جدي ذات مرة أن أكون شيئاً، وأنا أريد أن أفي بوعدي له.

بدت خيبة أمل علي وجه "عمار"، ثم قال: أفهم من عودتك للمذاكرة أننا نؤجل فكرة المطبعة..!

- بالعكس.. فكرة الطبع على القماش هي أولي أحلامي، ولذلك أعود للمذاكرة لأدرس علم الطباعة، وحتى يساعدنا أبي "عبد الرحمن" إذا اقتنع بالفكرة.

هزّ "عمار" رأسه، لقد بدأ يقتنع بما يقوله صديقه.

لكن "محمداً " استطرد يمازحه: سوف تكون أنت مديراً للمطبعة، فعليك أن تتقن المهنة، وخصوصاً طباعة أطقم السرير.

أخرج "عمار" مبلغاً من النقود، وأعطاه لصديقه، ليحفظه عنده مع المبالغ السابقة، والتي يوفرها من مصروفه الخاص لتحقيق حلم المطبعة.

اقتنع "عبد الرحمن" بفكرة المطبعة، واتفق معه أن يعطيه مبلغاً من النقود كل شهر، يضعه في دفتر توفير باسمه، ليكون شريكًا في تحقيق الهدف.

وكذلك "منار" والحاجة "أمينة"، ادخرت بجزء من إيجار الأرض، و"فاطمة" أيضاً.

***

عاشت الأسرة على أمل تحقيق هذا الحلم ، الكل يجتهد في مجاله.

"منار" حصلت على رسالة الماجستير بدرجة امتياز، وكانت بعنوان " قليلٌ من الاهتمام.. يخلق إنساناً سوياً".

واجتهد"عبد الرحمن"، في تجارته بقدر المستطاع، بجوار عمله الحكومي.

أما "محمد" بذل كل ما في وسعه، وحقق سنوات من النجاح، بمساعدة "منار" التي بذلت معه مجهوداً كبيراً. وكذلك "عبد الرحمن" .

وحصل على الإعدادية، ودخل المدرسة الصناعية قسم الطباعة.

ثم حصل على الثانوية الصناعية بتفوق، وأتقن الكثير من علم الطباعة وفنونها.

في اليوم الذي حمل فيه الشهادة الثانوية، لم يعد إلى المنزل، تأخر كثيراً.

المنزل يشتعل قلقاً لغيابه، كادت فاطمة أن تصرخ، وكذلك جدته.

"عبد الرحمن" يؤنِّب نفسه ويلومها، لأنه لم يذهب معه إلى المدرسة هذا اليوم،"منار" حائرة بين أول الشارع والباب.

حتى دخل "عمار"، ابتسم خفيفاً، وأبلغهم أنه سوف يأتي به .

انطلق ناحية المقابر، وخلفه "عبد الرحمن" و"منار .

من عادة "محمد"، أن يذهب إلى قبر جده كلما حصل على شهادة، ليبشره بنجاحه.

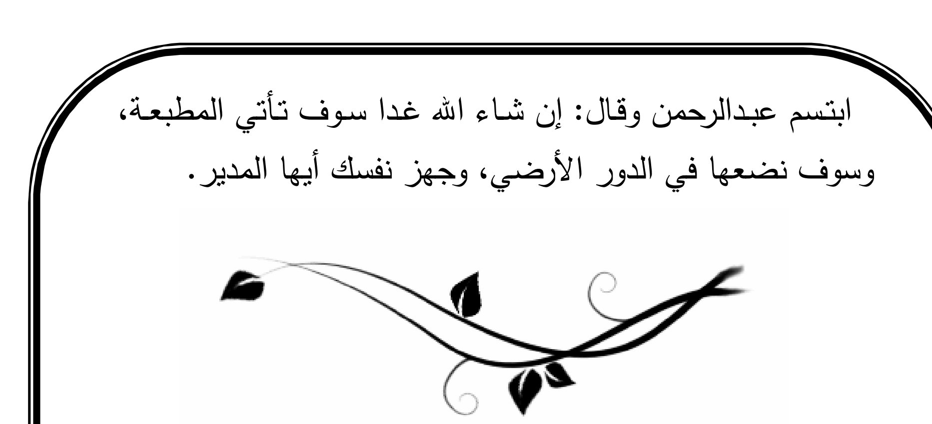
على القبر، كان يناجي جده ويدعو له، ويبلغه أنه أوفي بوعده، وحصل على شهادة أعلى مما كان يظن الأستاذ "حمودة".

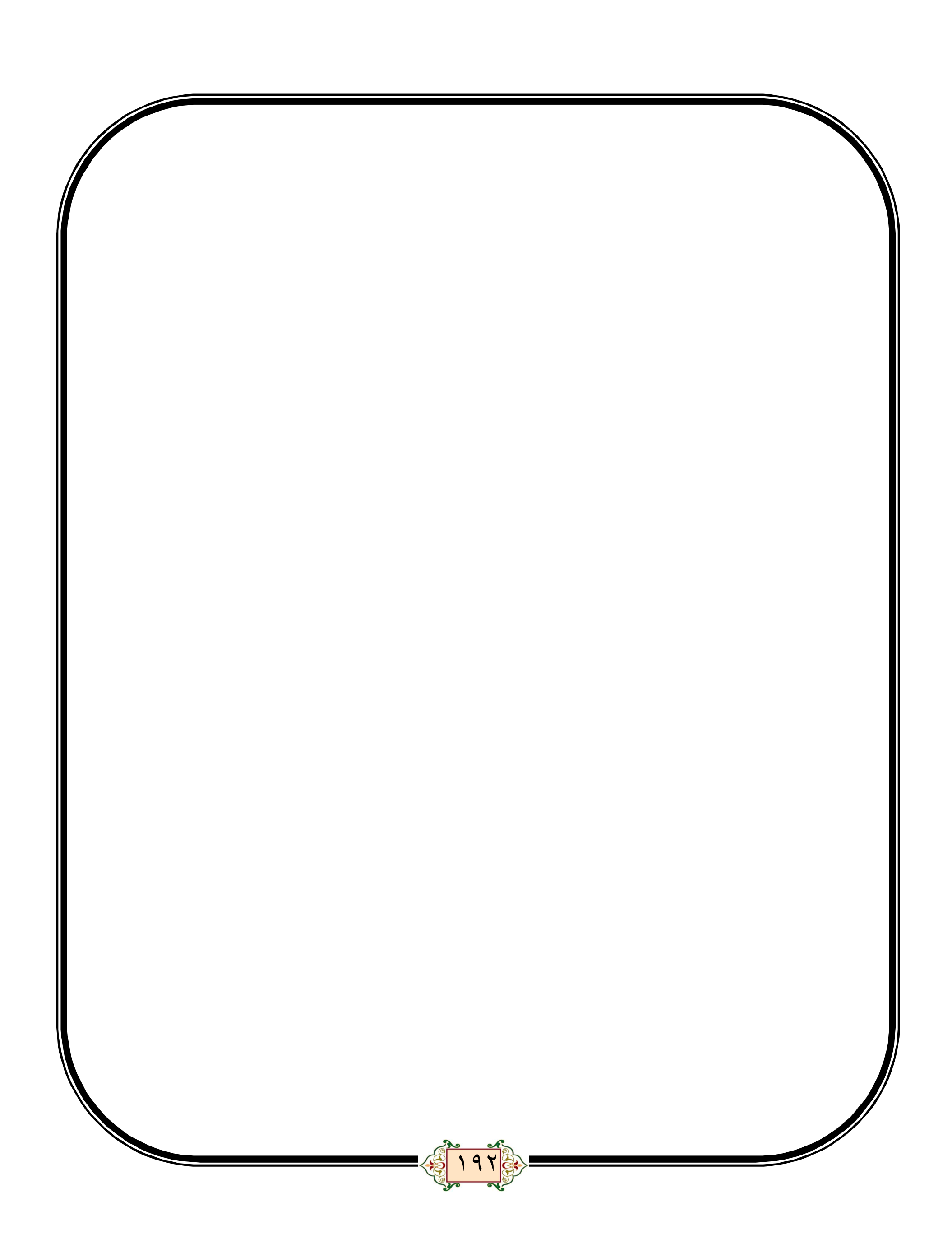
احتضنه "عبد الرحمن"، وعاتبه عتاباً ليناً، وقرصته "منار" من وجنته كعادتها، ثم انهالت عليه التهاني بالنجاح.

فقال: الحمد لله، لقد حصلت على مجموع يؤهلني للجامعة.

وهنا قال "عمار": والمطبعة يا صديقي.

ابتسم عبدالرحمن وقال: إن شاء الله غدا سوف تأتي المطبعة، وسوف نضعها في الدور الأرضي، وجهز نفسك أيها المدير.





مطبعة العصافير

فرح الجميع عندما رأوا عينات من إنتاج ماكينة الطباعة.

نظر "عبد الرحمن" إلى "عمار" وقال: ماذا ينقصك هنا يا سيادة المدير..؟

- عدد من عمال مساعدين فقط.

رد "محمد" قائلا: أصدقائي العصافير، سوف يأتون غداً لاستلام العمل.

شكره "عبد الرحمن" على هذا الشعور الطيب تجاه زملائه.

ثم قال: فكروا معي في اسم نطلقه على المطبعة، وعلى طقم السرير الذي سوف نتخصص فيه.

لم يفكر "محمد"، لقد كان جاهزا بالاسم، وقال: سوف نطلق على المطبعة ومنتجاتها اسم مطبعة العصافير.

***

أصبحت المطبعة خلية نحل لا تهدأ، "ميكروباص" خاص يأتي من المحلة الكبرى كل صباح، محملاً بأكثر من عشرة عصافير، يملأون المطبعة، بجوار عمال آخرين متخصصين في الطباعة.

بنات وصبيان من القرية، منهم من يقص القماش، ومنهم من يحمله إلى المطبعة، وآخرون يقومون بنشره في الشمس، وغيرهم يعملون على ماكينات الخياطة.



دموع العصافير

منذ أيام ، لاحظ "عبد الرحمن" تغيرا طرأ على "محمد".

بدأ يجلس في بلكونة المنزل كل ليلة، حتى وقت متأخر، رغم تعب النهار.

في أي شئ تفكر يا "محمد".. هل تفكر فيما أفكر فيه..أم هناك أمر آخر لا أعرفه..؟

هكذا كان "عبد الرحمن" يتساءل مع نفسه.

وذات مرة، قرر "عبد الرحمن" أن يخبر "محمد" بما في صدره.

نزل إليه، وجلس بجواره، وقال مبتسما: فيما تفكر يا سيادة المدير العام..؟

ابتسامة مريرة على وجه "محمد"، سرت لها قشعريرة في بدن "عبد الرحمن" الذي قال: "محمد... في صدري شئ يقلقني، وأود مصارحتك به.

نظر "محمد" في وجهه باهتمام، وسأله في لهفة: ماذا يا أبي..؟

- أنت الآن أصبحت رجلاً، وصاحب مشروع له مكانته في السوق، ويشهد الله كما تشهد أنت، أنني لم أمنعك عن والدك مرة.

سكت "عبد الرحمن" عندما رأى "محمد" ينهمر في البكاء، فسأله: ما يبكيك يا "محمد" ؟

- هذا ما أفكر فيه منذ أن عرفت أنه مريض، أفكر في زيارته من باب بر الوالدين، ولكن أخشى أن تغضب مني.

مسح عبد الرحمن على رأسه وقال: مهما حدث فهو والدك، وبر الوالدين من أسباب النجاة في الدنيا والآخرة.

انفجر "محمد" باكياً، وقام يقبل "عبد الرحمن" من رأسه ويده، ثم احتضنا طويلاً.

قال عبدالرحمن: اذهب إليه، وخذ معك ما يكفي من النقود.

تردد لحظة، ثم قال: ماذا عن جدي...هل يغضب مني.. وكذلك أمي وجدتي...؟

– اطمئن يا "محمد"، سوف يكونوا سعداء جداً.

***

في الصباح، أسرع "محمد" إلى منزل والده، هذه أول مرة يقف فيها أمام المنزل، وأول مرة يلتقي بوالده وجهاً لوجه، منذ المواجهة في المحكمة.

طرق الباب وقلبه يرتجف، فإذا بعمه يفتح الباب، لم يصدق ما رأى، وقال: محمد.. تفضل.

- أبي موجود.

- نعم.

اصطحبه إلى حجرة في آخر الدار الكبيرة، حجرة نصف مظلمة، لا يكاد يرى أشيائها، ووجد والده على فراش رث، يرتدي جلبابا أزرق قديم، عاري الرأس.

جلس بجواره في هدوء، شعر به محجوب، أدار رأسه ناحيته، فسأله محجوب، بصوت خفيض مريض، خرجت حروفه متقطعة، بلهثات المشرف على الموت: من..؟

لم يستطع "محمد" الإجابة، غلبه البكاء، وقبل يده مرات.

فأجاب "عمه" الواقف بجواره : "محمد" ابنك يا "محجوب"، جاء يزورك.

لـم يـصدق مـا جـاء لمـسمعه. ردد فــي صـوت متقطـع" محمـد ولدي... محمد ولدي"، ثم فاضت روحه إلى بارئها.

تمت بحمد الله